رفع
المسهم
غفر الله له ولوالديه

قاموس القرآن الكريم

مضمون القرآن الكريم
في قضايا
الإيمان والنبوة والأخلاق والكون

رفع
المسهم
غفر الله له ولوالديه

مضمون القرآن الكريم

في قضايا
الإيمان والنبوّة والأخلاق والكون

رفع
المسهم

الناشر: مؤسسة الكويت للتقدم العلمي
مشروع قاموس القرآن الكريم
الكويت: (١٣١١٣)
ص.ب: ٢٥٢٦٣
فاكس: ٢٤١٥٣٦٥
طباعة ذات السلاسل

رفع
المسهم

رفع
المسهم
غفر الله له ولوالديه

مكتبة الشريعة

2008-09-12

مؤسسة الكويت للتقدم العلمي

مضمون القرآن الكريم

في قضايا
الإيمان والنبوّة والأخلاق والكون

الأستاذ الدكتور
محمد عبد الهادي أبو ريدة

152395
جامعة الكويت
إدارة المكتبات قسم التبادل والإهداء
رقم التسجيل: ٢٠٨٣٧٩
التصنيف

الطبعة الثانية
١٤١٨ هـ - ١٩٩٧ م
الكويت

٢١١
ص ٠ ق ا

رفع
المسهم
غفر الله له ولوالديه

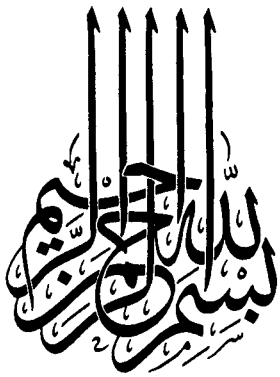

رفع المساهم
عن الله ولوالديه

رفع
المساهم
عبد الله الرحيلي

وفاء . . وعرفان

«كان لرحيل العالم الكبير والفيلسوف الشهير المرحوم محمد عبدالهادي أبو ريدة أعظم الأثر وأبلغ الحزن في قلوبنا، إذا أن فقد العلماء خسارة فادحة، فالله لا يقبض العلم ينتزعه انتزاعا، وإنما يقبضه بموت العلماء، كما جاء في الحديث النبوي الشريف.

والأستاذ الدكتور محمد عبدالهادي أبو ريدة، أحد الأعلام المتميزين، الذين تربت على أيديهم أجيال كثيرة في العالم العربي، وقد حظيت جامعة الكويت بأنه كان أحد أساتذتها، وتخرج فيها على يديه أجيال متميزة في مجال العلم والفلسفة، متمسكة بالمنهج الأخلاقي الإسلامي الذي حرص الفقيد على تأكيده بالفكر والسلوك.

ولقد امتد نشاط الفقيد رحمه الله ليشمل مجالات الإنتاج العلمي الأخرى بالكويت، فألف في الفلسفة لمراحل التعليم العام، وشارك مستشارا ومراجعا وكاتبا في معظم المشروعات العلمية التي أنجزتها الكويت في فترة وجوده بها.

ومن ذلك مشروع قاموس القرآن الكريم، الذي تقوم عليه مؤسسة الكويت للتقدم العلمي بتوجيه من حضرة صاحب السمو أمير البلاد الشيخ جابر الأحمد الصباح، ففوق أن الفقيد كان أحد مستشاري هذا المشروع، قام بكتابة مدخل جامع عن مضمون القرآن الكريم في قضايا الإيمان والنبوة والأخلاق والكون. ويعتبر هذا المدخل لونا فريدا من الكتابة الموضوعية عن

رفع المسهم

رسالة إلهية خاتمة، لا يتصدى له إلا كبار الفلاسفة وعظام المفكرين، من ذوي النهج المستقيم والخلق القويم، وكذلك كان أبو ريدة رحمه الله.

وأبرز ما يتناول هذا المدخل: القرآن ومكانه بين الكتب المنزلة.. القرآن منهج جديد في الإيمان والوصول إليه.. طريقة القرآن في التعريف ببعض المسائل، الموضوعات الكبرى في القرآن: العقائد، السموات والأرض وما بينهما، رسالة الإنسان ومعنى حياته في الأرض، السياسة الإلهية في تغيير الدول والحضارات، الحق والخير والجمال في القرآن الكريم.. أخبار الرسل والأنبياء في القرآن الكريم.. إلى غير ذلك مما عالجه القرآن الكريم.

وتعبيراعن تقدير مؤسسة الكويت للتقدم العلمي لهذا العالم الجليل، تبادر بطبع هذا السفر، الذي يعد آخر كتاب سطره الراحل الكريم، فيما نعلم، راجين أن يعوض الله الأمة فيه بأمثاله، وأن يكون القرآن له شفيعا عند الله في مدارج الصالحين».

أ. د. علي عبدالله الشملان

مدير عام مؤسسة الكويت للتقدم العلمي

رفع المسهم

تصدير

الحمد لله الذي أنزل الكتاب بالحق على سيدنا محمد ﷺ، ليكون كلمته الخاتمة للخلق، فمن آمن به اهتدى وسعد، ومن أعرض عنه ضل وشقى. ولذلك كانت تلاوة القرآن، ودراسته، وتدبره، واتباع سبيله، فريضة على كل مسلم، ترتفع درجته بمقدار ما يوفق لأدائه منها. وقد كان لأمير الكويت الشيخ جابر الأحمد الصباح أطال الله بقاءه من إجلال القرآن والإيمان به سبيلا للفلاح في الدنيا والآخرة، ماجعله يتعهد بإهداء الأمة الإسلامية قاموسا للقرآن الكريم، أو بالأحرى «دائرة معارف» مدارها القرآن الكريم نفسه، على أساس ألفاظه، وما يمكن أن يمثل منها مصطلحا، أو فكرة جامعة تستحق الإبانة عنها بالإيضاح والتحليل، لتكون «مادة» من مواد القاموس، وعهد حفظه الله إلى مؤسسة الكويت للتقدم العلمي القيام على هذا المشروع الجليل، وتكوّن له فريق عمل شرفت برئاسته، كما اختير له مستشاران، كلاهما من أهل الفكر والنظر، وكلاهما من أساتذة الجامعات المصرية والعربية المرموقين، وكلاهما من المشتغلين بالإسلام ودراساته، المهتمين بقضاياه ومستقبل شعوبه... هذان هما العالمان الكبيران: الأستاذ الدكتور محمد عبدالهادي أبو ريدة، والأستاذ الدكتور عبدالعزيز كامل... وقد كان لهما منذ بداية المشروع المشاركة في التخطيط له، والمتابعة لأصوله ومناهجه.

وشاءت إرادة الله العزيز الحكيم، أن يدعوهما إلى جواره، فلقيا ربهما في عام واحد. توفي الأستاذ عبدالعزيز كامل في يوم الثلاثاء ١٧ رمضان ١٤١١هـ (٢/٤/١٩٩١م) وتوفي الأستاذ الدكتور عبدالهادي أبو ريدة فجر الأحد ٤

رفع المسهم

جمـادى الأولى ١٤١٢هـ (١٠/١١/١٩٩١م) ودفـن في ١٣/١١/١٩٩١م في مدافن الجامع الإسلامي بجنيف.

رحمهما الله وغفر لهما، وجزاهما عن كتابه ودينه خيرا.

ومما اتجه اليه فريق العمل لمشروع قاموس القرآن الكريم، أن يكون بين يدي هذا القاموس تعـريف بموضـوعه: القـرآن نفسه: مـا هو، ومـا مصدره، وكيف نزل، وكيف جمع وحفظ، وما مضمونـه، وما مـوقفه من قضـايا الإيمـان والنبوة والأخلاق والكون؟! إلى آخر هذه التساؤلات، فتم تـأليف مجموعـة من المداخل الجامعة، يتناول كل منها جانبـا من هذه الجـوانب... ومن بين هـذه المـداخـل: «مضمـون القـرآن الكـريم في قضـايـا الإيمـان والنبـوة والأخـلاق والكون».

وقد تصدى لهذا الموضوع الخطير أستاذنا الـدكتور محمـد عبدالهـادي أبو ريدة، ومن الوفاء له أن نقف على خلاصة مختصرة جدا لسيرته رحمه الله.

ولـد محمد عبـدالهادي أبـو ريدة في ٢٤ نـوفمبر ١٩٠٩م بـالعـريش من محافظة سيناء بجمهورية مصر العربية، وحصل على الليسانس من كلية الآداب جـامعة القـاهرة سنـة ١٩٣٤م، والماجستـير (إبـراهيم بن سيـار النـظام وآراؤه الكـلامية) جـامعة القـاهرة ١٩٣٩م، ثم الـدكتوراة (الغـزالي ونقده للفلسفـة اليونانية) جامعة بازل بسويسرة ١٩٤٥م.

ثم عمل بالتدريس الجامعي منذ ١٩٤٥م مترقيا فيه، بجـامعة القـاهرة، ثم جامعة عين شمس، ثم جامعة الكويت (عمل بها بين ١٩٦٦م و١٩٨٧م)، كما عمل أستاذا زائرا بجامعة باريس.

وكان رحمه الله يتقن إتقانا كاملا: الإنجليزية والفرنسية والألمانية، ويجيد

رفع المسهم

الإسبانية والفارسية، ويعرف من اللاتينية واليونانية ما يتعلق بتخصصه الفلسفي، ولا سيما المصطلحات. . ولذلك فإن من بين إنتاجه العلمي كتبا مترجمة، منها «تاريخ الفلسفة في الإسلام»، من تأليف «دي بور» (١٩٣٨م)، «مذهب الذرة عند المسلمين»، تأليف «بينس» (١٩٤٦م)، «الدولة العربية»، تأليف «فلها وزن». . . وهذه كلها عن الألمانية، ومن يقف على التعليقات والشروح الضافية التي حشى بها هذه الكتب المترجمة، يعلم أن أبا ريدة موسوعى الثقافة حقا.

وفي المجال التراثي الإسلامي حقق جزأين من رسائل الكندي الفلسفية مع شروح واسعة، و«ديوان الأصول» لأبي رشيد النيسابوري.

وقد تجلى نشاطه على المدى الأوسع في المنتديات والمؤتمرات العالمية، حيث شارك في كثير منها، وكانت له بحوثه المتميزة، مثل: الإسلام وتحرير الإنسان (الجزائر ١٩٧٩م)، والتوحيد في الإسلام: شروطه ومظاهره الاجتماعية (فيينا، الملتقى الإسلامي المسيحي ١٩٨١م)، إمكانيات الإبداع العلمي والفلسفي بفضل المراجعة والتطوير لموضوع البحث والمنهج (الكويت ١٩٨١م)، الصحة البدنية والنفسية في الإسلام (كراتشي ١٩٨١م) الحضارة الإسلامية: أسسها الدينية ومميزاتها ومكانها بين الحضارات العالمية (قطر: ١٩٨٠م)، نظرة القرآن لمكانة الإنسان في الكون ولحقوقه (١٩٨٢م)، تجديد المنهج العلمي وتقدم المعرفة العلمية على أيدي علماء الإسلام: إنجازات الماضي وإمكانيات المستقبل (باكستان ١٩٨٤م)، الفكر الفلسفي الإسلامي: مكانه التاريخي، ميادينه الكبرى ومميزاتها (الكويت: ١٩٨٤م)، الأساس الصحيح المشترك لاتجاهات التصوف الإسلامي والفرق بين الصوفية وغيرهم (الجزائر ١٩٨٧م).

رفع المسهم

هذا بخلاف عشرات من المحاضرات العامة ألقيت في جامعات الكويت والمغرب والإمام محمد بن سعود ومعاهد ماليزيا وتونس والجزائر عن الإسلام، فضلا على بحوث عن الفلسفة في مؤتمرات هولندا وفرنسا وألمانيا وإيطاليا وإسبانيا.

وربما كان العطاء «التأليفي» هو الأقل بالنسبة لأستاذنا أبي ريدة رحمه الله، فقد كان عطاؤه كأستاذ معلم أوفى وأوفر، وأعمق أثرا في تلاميذه وأصحابه وعارفيه، فقد امتاز رحمه الله فضلا عن موسوعية المعرفة ـ بخلق علمي أصيل، يقوم على سلامة العقيدة، ونزاهة الفكر، واتساع الصدر للحوار، والجود السابغ بوقته ومناقشاته... ومن هذا الجانب كانت الإفادة الكبيرة والموصولة التي أعطاها رحمه الله لمشروع قاموس القرآن الكريم.

وهذا «مضمون القرآن الكريم في قضايا الإيمان والنبوة والأخلاق والكون»، أحد المداخل التي تعرف بالقرآن الكريم ضمن مشروعنا هذا. وعلى صعوبة الموضوع وجلاله وخطورته، فقد كتبه أبو ريدة في بساطة وسلاسة، حتى ليخيل لقارئه أنه يستمع لحديث عذب، صافي المخرج، لين الأداء، صادق الغاية، وتلك هي الأستاذية المتمكنة من طبيعة الموضوع وأهدافه.

على أن أبا ريدة كان يشترط علينا (أعني فريق العمل بالمشروع) أن نشاركه ما يكتب، ونتبادل الرأي بشأنه، ولم يكن أحد يدري أن أستاذنا، الذي كان يمتلىء حيوية رغم أنه تخطى الثمانين، سوف يرحل عنا هكذا فجأة، في فرنسا، فسبحان الذي تفرد بالبقاء، القائل: ﴿**وما تدري نفس بأي أرض تموت**﴾.

ونحن إذ نقدم هذا الكتاب، أو بالأحرى هذه الرسالة، نقدمه كما كتبه

رفع المسهم

صاحبه رحمه الله، وتقتضينا الأمانة أن نشير إلى أن إسناد القول للقرآن الكريم، مثل: يقول القرآن، القرآن يفعل كذا، القرآن يتجه إلى كذا، أو يوجه إلى كذا، أو «يترك القرآن لله أن يحكم بين أهل الأديان»... نقول: هذه الألوان من التعبير حادثة تماما في الزمن الأخير، والثقافة الإسلامية في كل مراحلها لا تعرف هذا الإسناد، والمسلمون يؤمنون إيماناً راسخاً أن القرآن كلام الله، ولذلك يقولون عند الاستشهاد به: قال الله، قال سبحانه، قال تعالى.. وما يماثل ذلك، وقد تركنا ما كتبه أستاذنا من ذلك على حاله.

وكنا نود أن نقف على بعض المراجع لجزئيات من هذا الكتاب، فإنه قد أعيانا مثلا أن نجد بعض العبارات التي وردت على «أنها أحاديث نبوية، كما كنا نود أن نحاور أستاذنا في بعض «التأويلات» كقوله (ص: ٨٥) «ففي سورة طه كان النهي عن الاقتراب من الشجرة أشبه بأمر تخيير لا بأمر تكليف، وهذا ما فهمه بعض المفسرين، ولم يكن مصحوبا بوضع عقوبة، بل بمجرد إشارة إلى ما سيلاقيه الإنسان من «شقاء»... الخ»، وكنا نود أيضا أن نحاوره في بعض ما ذهب إليه من التأويل، كتعليله (ص: ٦٥) لنهي الرسول ﷺ عن الخوض في «القدر» بأن ذلك كان «في فترة تأسيس العقيدة الإسلامية في وقت لم تكن العقول قد تهيأت تماما للبحث في هذه المسألة الخطيرة...» يضاف إلى ذلك بعض التوجهات الصوفية ، وهي قليلة، حيث كان لأستاذنا تقدير خاص للتصوف، انظر مثلا الفقرة الأخيرة في «صفات الله» الوحدانية (ص: ٥١). ومن ناحية شكلية، لكنها منهجية مهمة، نعتذر عن ذكر قائمة المراجع التي استند إليها الكتاب. فقد طلبنا من المؤلف رحمه الله أن يزودنا بقائمة مراجعه إلا أن القدر عاجله وحال دون ذلك، غير أن القارىء يلتقي بعدد غير قليل من أسماء المراجع في ثنايا الكتاب.

رفع المسهم

وفي الختام، فإن هذا الكتاب، أو هذه الرسالة، كما يرى القارىء عمل علمي كبير، ينبي عن ثقافة شاملة محيطة، واشتغال أصيل بالموضوع، وإيمان كبير بالقرآن الكريم، وبكونه كلمة الله الخاتمة إلى الخلق أجمعين، وعلى ذاك، فما فيه من نظر وآراء، هو صورة لاجتهاد الكاتب، تفتح باب المشاركة لكل عالم ليستدرك بالإيضاح أو الإضافة أو الحذف، فما من أحد إلا يؤخذ من قوله ويترك، غير المعصوم: سيدنا رسول الله ﷺ.

رئيس المشروع

أ. د. عبدالله يوسف الغنيم

رفع المسهم

تمهيـــد

القرآن روح من أمر الله:

الكـلامُ عن القرآن أو عـرضُ ما جـاء فيه من نـظرةٍ متكـاملة للحقـائق الكبرى والمبادىء الكلية وما يندرج فيها من دقائق المعاني ومن إشارات تدركهـا العقول أو تشعر بها القلوب، وما لألفاظه من دلالات متنوعة، يفوقُ طاقـةَ أي إنسان، لأن القرآن كتابُ الله الذي أنزله ﴿تِبْيَـٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾ (النحل/٨٩)، وهو الإسلام كلّه، بل الدينُ كلُّه. لأنه اشتمل على حقائق الإيمان وعلى كـل ما نزل من أصول الديانات المنزلة قبله. وهذا يعرفه من قرأ القرآن وتـأمل معـانيه ومقدارَ تثقيفها للعقول بأصول المعرفة، ويعرف ذلك أيضاً من أدرك تأثير آيات القرآن في أحاسيس القلوب وفي دفع الإرادات والهِمَم.

والقرآن يملأ شعورَ المسلم بما فطره الله عليه من: حب العلم، والشعور بلذة المعرفة، وروح التقوى، وهو يبين للإنسان مكانَـه الرفيـع بين المـوجودات ومـوقعه في هـذا الكون الـذي يحيط به، وهـو في الوقت نفسـه يُبَصِّر الإنسـان بموقعه في هذه الحياة الدنيا وزينتها وطيباتها، فلا يمنعـه من محبَّتِها والتمتُّـع بها، شريطةَ أن تكونَ خالصةً من المؤاخذة في يوم الحساب (الأعراف/٣٢).

إن وَقْعَ آيات القـرآن في عقل المسلم وقلبـه ليس وقعاً لمجـرد كلام مملوءٍ بـالمعاني العـظيمة العميقـة، بل هـو فوق ذلـك ما أشـار إليـه الخـطابُ الآلهي للرسول عليه الصلاة والسلام بقوله:

﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَـٰبُ

رفع المسهم

وَلَا ٱلْإِيمَـٰنُ وَلَـٰكِن جَعَلْنَـٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ ﴿٥٣﴾ ﴾ (الشورى؛ ٥٢ - ٥٣).

فالقرآن روحٌ من «عالم الغيب» يسري في الأرواح الطاهرة المستعدة لقبول الحق، هو ينيرُ العقولَ ويحيى القلوبَ بحقائق من ذلك العالَم الذي ينتمي إليه عقلُ الإنسان وقلبه.

إن القرآن كلامُ الله، وهو «الحقُّ المُبين» (النمل/٧٩)، ولا يحيط بما فيه إلا الله، ولا يمكن لمخلوق أن يحيطَ ببعض ما فيه، ولا أن يدركَ دقائق معانيه. لكن الله أكرَم الإنسان بأن خاطبه بكلامه تعالى وبلسان بني آدم، لكي يعلِّمه أصولَ الحقائق، ويفتح أمام عقله آفاقَ التفكير والنظر. والله يقول عن كتابه: ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾(القمر/١٧)، كما أنه أمر الإنسان بأن يتدبر آيات كتابه (ص/٢٩)، وعلى هذا فإنه يصح للإنسان، بل يجب عليه إذا كان على حظ مناسب من قدرة الفكر ومن العلم بلغة العرب أن يجتهدَ قَدْرَ استطاعته في دراسة آيات «الكتاب الحكيم» ويستخرج منها المعرفة، ولكن لا بدُّ له أيضاً من أن يستعين أولاً بما أرشده الله إليه من فهم كتابه، وذلك بأن يتأمل آياته ويفهم بعضَها في ضوء بعض (آل عمران/٧)، ومن الطبيعي أن يرجع الإنسان إلى ما فَهِمَتْهُ العقول الكبيرة من آيات القرآن، لأنه يقول إن معانيه إنما تُفهم وتتجلى مع تزايد المعرفة ومع مرور القرون وتضافر جهود العلماء، وهذا ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَـٰتِنَا فِى ٱلْـَٔافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾ ﴾ (فصلت/٥٣).

رفع المسهم

ويقول أيضا: ﴿ بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ﴾ (العنكبوت/٤٩). أمّا الجاحدون المكذّبون فهو يقول عنهم: ﴿ بَلْ كَذَّبُوا۟ بِمَا لَمْ يُحِيطُوا۟ بِعِلْمِهِۦ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٩﴾ ﴾ (يونس/٣٩).

وسأجتهد في عرض بعض ما جاء في القرآن، مستعيناً بالله في فهم آياته، بقدر طاقتي، وأحب أن أقصرَ كلامي على موضوعات محدَّدة، أضعها أمامَ القارىء لكي يتعرف على روح كتاب الله ويعرف منهجَه وكيف علَّم الإنسان من حقائق الوجود والكون وعرّفه بحقيقة ذاته ورسالته في الأرض وبما لا يحصى من مسائل العلم والمعرفة.

ومهما كانت قدرةُ العقل البشري قاصرةً عن الإلمام بما في القرآن وإدراك حقائق معانيه وإشاراته المباشرة وما وراءها، فإن ذلك لا يُعْفِي المؤمنَ من الامتثال لأمر الله بالنظر في كتابه والتعلُّم منه وتقديم ما يصل إليه، وبعد ذلك فإن له العذر إنْ قصر عن إصابة ما أراده الله من كلامه الذي لا يعلم حقائقه ودلالاته إلا هو سبحانه وتعالى.

محمد عبدالهادي أبوريدة

رفع المسهم

رفع
المساهم
عبد الله الرحيلي

أولاً ـ بين يدي القرآن

مقدمات لابد منها

- الدين، الإسلام .
- مكان القرآن بين الكتب المنزّلة .
- طريقة القرآن في التعريف ببعض المسائل .
- العلم والمعرفة .

رفع المسهم

رفع
المساهم
عبد الله الرحيلي

الدين ، الإسلام

الدين :

لفظ «الدين» أصيلٌ في اللغة العربية، وقد ارتبط بأمور الحياة العملية، وهو يدل على أمور كثيرة: الدأب والعادة، القاعدة في الحكم على الأمور، الطاعة والانقياد، الجزاء والحساب والقضاء، وهو موجودٌ في كلام العرب قبل الإسلام، ونجده في القرآن والحديث الشريف، فلا معنى للبحث عن مصدر له غير عربي، كما يخيل لبعض المستشرقين، ثم إنه قبل الإسلام وبعده صار المفهومُ من لفظ «الدين» أنه طاعة الله والتعبُّد له، وهكذا فهمه العرب.

واللفظ المقابل للفظ «دين» في اللغات الأوروبية يرجع إلى أصل لاتيني: Religio، وهو يفيد الارتباط بشيء أو تأمل الأشياء بعدالة وأمانة، ثم صار يطلق على عقائد الدين وتنظيمه لأمور الحياة.

والتعريفات للدين بمعناه العام متنوعة في المعاجم اللغوية والمتخصصة، والمفهوم يتلخص في سلوك، عند جماعة، يَدُلّ على اعتقادهم بقدرة آلهية تدبِّر الأشياء وأمورَ الإنسان، ويتمثل ذلك في إرضاء تلك القوة وفي طقوس أو شعائر تؤديها الجماعة.

وعند أحد كبار علماء العقائد المسيحية، وهو توماس الأكويني Thomas of Aquin (ت ١٢٧٤م) تعريفٌ للدين بأنه «الفضيلةُ التي يُؤَدِّي بها الإنسان لله ما يستحقه من التعظيم».

ثم جاء علماء الاجتماع والأنثروبولوجيا وأخذوا يتخيلون نشأةَ مفهوم الألوهية وأنواعَ التقديس عند الشعوب البدائية، ولهم في ذلك آراء عديدة،

رفع المسهم

وبعضها خيالي، وهي خارجة عن نطاق بحثنا، لكننا نحب أن نلاحظ أن معظم التعريفات للدين والتدَيُّن لا تعدو أن تكون وصفاً لسلوك المتديِّن ولا تتكلم عن نوع الدين ومصدره، لأنه توجد أنواع من التقديس عند الشعوب البدائية، وتوجد أديانٌ تسمى «طبيعية»، وهي، وإن كانت قد ظهرت في العصور الحديثة عند بعض أهل الديانات المنزلة في الغرب وأخذت أصولاً منها، إلا أن أصحابَها يزعمون أنها تعتمد على العقل الطبيعي.

وهناك «الأديان المنزلة» أو «أديان الوحي الآلهي» Revealed Religions، وهي التي نقصدها عند الكلام عن الدين بحسب التصور الإسلامي لمفهوم الدين والدين المنزّل، حيث تبلور تعريف للدين بأنه«وَضْعٌ إلهيٌ سائقٌ لِذَوِي العقولِ باتِّباعِهم إيّاه إلى الصلاح في الحال والفلاح في المآل» (الكشاف للتهانوي).

فالدين بمعناه الحق هو الذي يأتي من عند الله، ويكون موجَّها للعقلاء، لأنه أصولٌ في الاعتقاد والعمل، يتصورها الفكر ويعمل بها الإنسان، والعقلاء يقبلون الدين عن حرية في الاختيار، وهو ليس مجردَ عقيدة أو شريعة، بل هو نظامٌ كامل للحياة الإنسانية السليمة الكاملة في هذه الدنيا، وهو يضمن الفوز بالسعادة بعدها.

وجوهرُ الدين المنزل: الإيمان بوجود الإله الواحد الحقّ، الذي خلق الإنسان وعيّن له مكاناً بين الموجودات، وبيّن له رسالتَه الخاصة التي يؤديها في الأرض ويُسْأل عنها.

ومَنْ يدرسْ تاريخ التدين وأنواع الديانات، وينظر في الدين كما صنعه البشر أو تخيلوه، وكذلك من يتأمل مفهوم الألوهية كما تصورته الشعوب، وكما تصوره الفلاسفة قديماً وحديثاً، يدركْ بسهولة عِظَمَ الفضل الالهي على بني آدم

رفع المسهم

بمجيء التعليم الالهي الذي عرَّفهم بجوهر الدين، وهو الإيمانُ بالله واتِّباع هداه، وصحّح لهم أصولَ المعرفة، وأعطاهم النظرةَ الشاملة لكل ما يحتاجون إليه، وكيف كان يتسنى لهم معرفةُ الحقائق الكبرى في الدين أو الكون أو الحياة، وهم مقيَّدون بانطباعات هذا الكون المحيط بهم!؟.

﴿ وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴿١١٣﴾ ﴾ (النساء/١١٣).

الإسلام:

وقد سُمِّيَت الرسالة المحمدية باسم اختصت به، وهو «الإسلام»، وسمي أصحابها بأنهم مسلمون، لكننا نجد في القرآن أنه يصف جميع أهل الرسالات الإلهية بأنهم «مسلمون»، والمقصود «الإسلامُ لله» (مثلا نوح: يونس/١٠، إبراهيم ويعقوب: البقرة/١٢٨، ١٣١ ـ ١٣٣، موسى: يونس/٨٤، أتباع سيدنا عيسى: المائدة/١١١).

لكن إحدى الديانتين السابقتين سُمِّيت بنسبتها إلى سلوك هو عمل ديني، وهذا هو اسم اليهوديّة، وهو يرجع إلى: هادَ يَهُود، أي تابَ ورجع إلى الله، وهذا ما يدل عليه القرآن(البقرة/٦٢، الأعراف/١٥٦). والديانة الأخرى سميت بنسبتها إلى صاحبها: «المسيحية» نسبة إلى المسيح عليه السلام أو النصرانية من مناصرة أتباعه له في دعوته، وهذا يؤخذ من القرآن أيضاً (آل عمران/٥٢) وذلك أن سيدنا عيسى لما أحس إنكار بني إسرائيل لدعوته قال: ﴿ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ ۖ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٥٢﴾ ﴾ (وانظر أيضاً المائدة/١١١)، وقد سميت الديانات الأخرى بأسماء مؤسسيها: البوذية، الزرادشتية...).

رفع المسهم

ويقترن اسم الإسلام بابراهيم عليه السلام. ﴿إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٣١﴾﴾. (البقرة/١٣١).

ونستطيع أن نلاحظ أنه لم يكن للدين، أو بالأحرى للتديُّن، معنى ذاتي خاص ومحدَّد قبل تسمية «الإسلام»، فلما جاء القرآن بيَّن مفهومَ الدين وروحَه وأعطاه التسميةَ المميِّزةَ التي تنطبق على الرسالة المحمدية وعلى كل الرسالات السابقة.

الإسلام، الإخلاص:

التعريفات الجاريةُ للإسلام هي في الغالب تعريفات إجمالية وموجزة جداً، من قبيل أنه الطاعةُ والانقيادُ لله. وهذا من الإسلام، لكنه الأمرُ الظاهرُ، وهو بمثابةِ القشر من اللُبَاب، ولا يتجلى المعنى المتكامل للفظ «الإسلام» من شتى جوانبه إلا باستقراء معاني كل ما هو مشتق في القرآن من الأصل اللغوي، وهو «س ل م»، وتفاصيل جوانب تلك المشتقات موجودةٌ في القرآن ولا نحتاج للتأكيد عليها. والمهم أن الاستقراء يبين عمقَ الدلالة وروحَها.

فالإسلام ليس نوعاً من الاستسلام، بل هو «إسلامٌ لله»، طوعاً واختياراً من جانب المسلم، وربما يكون أهمُّ لون لمعنى كلمة «إسلام» هو أن يُبْرِيء الإنسانُ عقلَه من شوائب الشرك الخفي ومن كل عبودية أو عبادة أو تقديس لشيء إلا لله، بحيث يثق به، ويتوكل عليه، ويتبع هداه، ويجعل ذاتَه لله بكليتها «سَلِيمَةً خالِصَةً»، وهذا هو معنى ما جاء في القرآن عن إبراهيم عليه السلام أنه ﴿جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ (الصافات/٨٤)، وهو معنى قول القرآن: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾﴾ (الأنعام/١٦٢).

رفع المسهم

وليس معنى هـذا هو العبادة بمعناهـا العادي فقط، لأن كـل أعمال المؤمن التي يقصد بها تحقيق رسالة الإنسان الدينية والعقلية والأخلاقية هي أيضاً عبادة بمعنى حقيقي.

وفي القـرآن مفهوم: «الإخـلاص»، وهو أعمق وأدقّ من حيث الـدلالة من المعنى الجاري للفظ، لأنه يقتضي أن يُخلّص الإنسان إسلامَه من الشوائب، ومع أن لفظ: «مُخْلِصُون»في القرآن يستعمل كأنه البـديل للفظ «مُسْلِمُـون» فإن مفهوم «إخْلاص الدِّين لله» موجودٌ في آيات كثيرة (الزمـر/ ٢ ـ ٣، ١١ ـ ١٢) وهو يدل على عمل إضافي يُفهم من اللفظ.

ومن الإخلاص ما قد يكون في أوقات الشدة، وهو ما يشـير إليه القـرآن من أن الغافلين عن ذكر الله وعنايته، عندما تُحيط بهم الأخطارُ المهلكة، فـإنهم يَدْعُون الله ﴿مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ (العنكبوت/ ٦٥، لقمان/ ٣٢).

ومن ذلـك مفهوم «الإنـابة» إلى الله عنـد الشدة، فهـو يظهـر إذا أصابَ الإنسانَ ضُرّ، فإنـه «يدعـو ربه مُنِيبًـا اليه» (الـزمر/ ٨، الـروم/ ٣٣)، لكن المؤمنين حقاً يدعون ربهم دائماً «منيبين إليه» (الروم/ ٣١).

أمـا الإخلاص الحقيقي فـلا بدُّ لـه من عمل إيجـابي كبير لتنقيـة الإيمـان والأعمال من شوائب الرياء، بل من شوائب الغـرور بالأعـمال الصالحة، والظنّ بأن الإنسان قد حقّق بها ما أراده الله منه، مع أن الفضلَ كله لله. وقد خصص علماءُ الـتربية الـدينية ـ الـروحية في الإسـلام كُتُباً لـلإخـلاص، وضمُّـوا إليـه «الصِدْق»، كما نجد ذلك ميسراً للقارىء في كتاب «الإحياء» للإمام الغزالي.

وإذا كـان في القرآن مفهـوم «المُخْلِص» بكسر الـلام، وكـذلـك مفهـوم «المُخْلِصين» فإن فيـه مفهوم المُخْلَص بفتـح اللام والمُخْلَصـين أيضاً (مثـلاً فيما يتعلق بسيدنا موسى عليه السلام(مريم/ ٥١)وبسيدنا يـوسف (يوسف/ ٢٤).

رفع المسيهما

والمُخْلَص.بفتح اللام هو الذي استخلصه الله لنفسه واجتباه، والمُخْلَصون هم الأبرار الذين حَفِظهم الله حتى لا يكونَ للشيطان سلطانٌ عليهم (الحجر/٣٩ ـ ٤٠) وهم من (المُصْطَفَيْنَ الأخْيَار)، الذين اصطفاهم الله (فيما يتعلق بسيدنا إبراهيم وإسحاق ويعقوب ص/٤٨).

ولما كان الإسلام قد جاء مصدِّقاً لما قبله وكان التوحيدُ هو الجوهر المشترك بين كل الرسالات الإلهية، وحدَّد في الوقت نفسه مفهومَ الدين والتديُّن تحديداً واضحاً وذكر التسمية، فإن من الطبيعي أن نجد في القرآن قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾ (آل عمران/١٩).

وهذا ليس دينَ الآدميين وحدَهم، بل دينُ جميع المخلوقات:

﴿أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ (آل عمران/٨٣).

وإذا كان هذا هو الدين بمعناه الأساسي عند الله، فإنه هو الموقف الصحيح لكل مؤمن، ولذلك يقول القرآن: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ (آل عمران/٨٥).

وكذلك لما كان ابراهيم عليه السلام هو الرسول الذي ينتسب إليه أهل الأديان الثلاثة جميعا، وكان الإسلام يُبْنَى على دين ابراهيم (مثلا النحل/١٢٣) فإن من شأن الإسلام الذي جاءت به الرسالة المحمدية أن يكون بهذا المعنى مقبولاً عند الجميع، وهذا ما يقوله الفخر الرازي في تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا ﴿١٢٥﴾﴾ (النساء/١٢٥).

رفع المسهم

الإسلام، الإيمان، الإحسان:

شرحنا الإسلام من حيث المفهوم العام، وهو في أول الأمر قد يكون الأمرَ الظاهر ويكفي فيه الإقرارُ باللسان إقراراً صادقا، لكن لا بدَّ له أن يتعمق ويصبح شعوراً مستقِراً في الفكر والوعي، وهذا ما يسمى «الإيمان»، وهو ما يشير إليه القرآن بالنسبة للأعراب الذين وفدوا من البادية واعتنقوا الإسلام، وظنوا أن الأمرَ مجردُ إعلان أنهم «مسلمون»، فقال القرآن: ﴿ قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ ﴾ (الحجرات/١٤).

فالإيمان فعلُ العقل إذا استقر في القلب، «والقلب» في لغة القرآن يشير إلى «العقل» في عمقه، ونحن في كلامنا عن الإسلام وصلنا إلى هذا المعنى.

ثم يأتي بعد ذلك ما أشار إليه الحديث الشريف، وهو «الإحسان»، وذلك في شرح الرسول عليه الصلاة والسلام لمعنى الإسلام والإيمان والإحسان. «والإحسان» مفهومٌ رفيع وعام، لأنه عبارة عن فعل الشيء على أحسن وجه يستطيعه المؤمن، وهو من قبيل ما نجده من مفهوم إتقان العمل، سواء كان قولاً أوْ فعلاً أو معاملةً (البقرة/١٧٨، ٢٢٩) أو عبادة. وعلى الإنسان أن يُحْسِنَ إسلامَه (النساء/١٢٥) فالإحسانُ قيمةٌ زائدة عن مجرد الفعل حتى مع مطابقة العمل للمبدأ والقاعدة، لأن ذلك قد يكون شيئًا آلياً شكلياً.

وإذا كان الله تعالى قد «**أحسن كل شيء خلقه**» (السجدة/٧)،

رفع المسهم

« **وصور الإنسان فأحسن صورته** » (غافر/٦٤)، فإن القرآن يريد من الإنسان أن يُحْسِن عمله (الكهف/٣٠)، وينال على ذلك ﴿ أَجْرًا حَسَنًا ﴾ (الكهف/٢).

والإحسانُ المشار إليه، إلى جانب الإيمان، هو إحسان العبادة، بحيث يكون التوجّه إلى الله من داخل الذات، مع الشعور بالجلال الالهي والحضور الالهي، وأن يكون مناجاةً له باستغراق الفكر كله حتى كأنه مشاهدةٌ بالروح، وهذا هو معنى شرح الرسول عليه الصلاة والسلام لمفهوم «الإحسان»، وهو قوله: «الإحْسانُ أَنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تراه، فإنْ لَمْ تَكُنْ تَراهُ فإنَّهُ يَراكَ».

رفع المسهم

مكان القرآن بين الكتب المنزّلة

القرآن هو كلام الله الذي نـزّله عـلى رسولـه محمد ﷺ، وهـو وحي من مصدر كل وحي سبق، وهو كلامُ الله لفظاً ومعنى.

﴿إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيْمَٰنَ ۚ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿١٦٣﴾﴾ (النساء/١٦٣).

﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ﴾. (الشورى/١٣).

والقرآن ليس شريعةً وتاريخاً لشعب معين، ولا هو مجرد دعوةٍ أخلاقية روحانية على أساس الإيمان بالله، وغرضُها إحياءُ الإيمان في القلوب والدعوة إلى محبّة الله ومحبّة الإنسان، وإنما يشتمل على الدين كله، وفي داخله الأدلة على صدقه، كما تبيّن ذلك في الكلام عن إعجازه، وكما سيتبين من كلامنا فيما يلي.

﴿قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ ۖ هَٰذَا ذِكْرُ مَن مَّعِىَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِى ۗ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْحَقَّ فَهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٤﴾﴾. (الأنبياء/٢٤).

والقرآن يؤكد أنه جاء بالحق، مشتملا على دعوة الرسل والأنبياء جميعاً قبله، وهي الدعوة إلى التوحيد.

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾. (الانبياء/٢٥).

رفع المسهم

وجاء أيضاً مُبَيِّناً لأهل الكتاب المعاصرين له (المائدة/ ١٦ ، ١٩) ومكملاً بعض أخبار الأنبياء، ومفصِّلاً بيان حمل المسيح عليه السلام بواسطة الروح القدس وولادته ورسالته (آل عمران/ ٣٥ - ٥١، مريم/ ١٦ - ٣٦، الأنبياء/ ٩١، التحريم/ ١٢). وموضِّحاً حكمة الله من خلق الإنسان وحياته في الأرض، كما سنرى، ومُذَكِّراً أيضاً بما نُسيَ أو ضاع من الوحي السابق (المائدة/ ١٣ - ١٤).

ونظراً لأن القرآن يؤكد أنه آخرُ الهدايات الإلهية فإنه جاء:

أولاً: **مصدِّقاً، من حيث المبدأ، لما قبله، ومشتملاً على ما فيه من هداية، ومشتملاً أيضاً على شيءٍ من الوحي القديم** (صحف إبراهيم: النجم/ ٣٧ . . ، الأعلى/ ٨ - ١٩).

ثانياً: **مُهَيْمِناً على ما قبلَه، بمعنى أنه شاهدٌ له بالصدق والثبات وضامنٌ له البقاء.**

ثالثاً: **واضعاً لمنهج جديد في المعرفة بوجود الله والإيمان به، وذلك هو منهج استعمال العقل في النظر إلى هذا الكون وفهم ما جاء به القرآن من حقائق العلم والإيمان وإقامة الدليل الكافي للتصديق بها**، كما سنرى فيما يلي.

وفي القرآن بيانُ مكانه بين الكتب المنزلة قبله، وكانت بين يدي أهلها، وذلك، على الترتيب التالي:

﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا۟ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ عَلَيْهِ شُهَدَآءَ فَلَا تَخْشَوُا۟ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٤٤﴾ وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ وَٱلْعَيْنَ

رفع المسيهما

بِٱلْعَيْنِ وَٱلْأَنفَ بِٱلْأَنفِ وَٱلْأُذُنَ بِٱلْأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُۥ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٥﴾ وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٦﴾ وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ ٱلْإِنجِيلِ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فِيهِ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٤٧﴾ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾ (المائدة/٤٤ ـ ٤٨).

وقد ترتب على ذلك كلامٌ طويلٌ مع أهل الكتب المنزلة قبل القرآن.

على أن القرآن يتجه إلى جمع كلمة المؤمنين بالله، وذلك بأن يُبْرِزَ خصوصاً مِلَّةَ إبراهيم التي يعترف بها الجميع، ويُعَظِّم شأنها، لما فيها من التوحيد الخالص لله والامتثال التام لأمره، ويوصي باتباعِها (مثلا البقرة/١٢٤ ـ ١٣٧، آل عمران/٩٥، النحل/١٢٣). هذا، وشخصية إبراهيم في القرآن تمثل لنا المفكر والمجاهد والصابر والمُتَحَدِّى، كما سنرى في الكلام عنه فيما يلي.

والقرآن باعتباره الوحي النهائي موجَّه إلى الإنسانية كلها، فهو أولاً يخاطب أهلَ الكتب السابقة ليرفع ما بينهم من خلاف (المائدة/ ١٥ ـ ١٦، النحل/٦٤)، وهو يدعوهم بالحكمة والموعظة الحسنة إلى الإيمان به، لأنه مصدِّقٌ لما معهم، وليكونَ موقفُهم منه بعيداً عن التناقض، ونظراً للخلاف بينهم فإنه يدعوهم إلى جوهر الدين والإيمان وهو التوحيد الخالص:

رفع المسهم

﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾﴾ (آل عمران/٦٤).

ثم هو موجَّهٌ الى البشر جميعاً:

﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٨﴾﴾ (الاعراف/١٥٨).

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾. (سبأ/٢٨).

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾﴾ (الانبياء/١٠٧).

﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴿١﴾﴾ (الفرقان/١).

ونظرا لأن حكمة الله قد اقتضت أن يكون الناس، كما سنرى، عقلاءً أحراراً ومسؤولين عما يتبعونه من دين، وأَذِنَتْ أيضاً بأن يختلفوا في ذلك، فإن القرآن يؤكد أنه ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥٦﴾﴾ (البقرة/٢٥٦).

ولذلك فإن الإسلام في أثناء تبليغ دعوته للعالَمين لم يُكْرِهْ أهل الكتاب على الدخول فيه، وإنما كان يقاتل من يقاوم تبليغَ رسالته لكي يعرفها الناس، وبعد ذلك فإن القرآن يقول: ﴿وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ....﴾ (الكهف/٢٩).

رفع المسهم

وسنرى موقف القرآن من أهل الكتاب الذين اختلفوا فيما بينهم، وأنهم عندما يختلفون مع الرسول ، فإن الله يأمره بألاّ يتّبعَ المنكرين الذين اختلفوا، عدوانا بعضهم على بعض، ويأمره بقوله:

﴿ فَلِذَٰلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ آمَنتُ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِن كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴿١٥﴾ ﴾ (الشورى/١٥).

والقرآن يترك لله ان يحكم بين أهل الأديان يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَىٰ وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ (الحج/١٧).

والقرآن يُطَمْئِنُ كلَّ المؤمنين باللهِ واليَوْمِ الآخر، وذلك بقوله:

﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَىٰ وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾. (البقرة/٦٢).

وفي مواجهة المنكرين لرسالة الإسلام فإن الله يأمُرُ رسولَه أن يقول لهم:

﴿ قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ الرُّسُلِ ﴾ (الاحقاف/٩).

﴿ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَاحِرٌ مُّبِينٌ ﴿٢﴾ ﴾ (يونس/٢).

﴿ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ ﴿٤٣﴾ ﴾ (الرعد/٤٣).

رفع المسهم

و«علم الكتاب» هو العلم بجملة الكتب المنزلة، والرسول يستشهد على صدقه بعلم المتخصص في دراسة تلك الكتب، ومن يدرس القرآن بعقل متحرر لا بدَّ أن يتبيَّن أن جوهر الوحي الالهي واحدٌ، وأنه كله موجودٌ في القرآن ومحدَّدٌ بكل وضوح ومعه أدلتُه.

مرحلة جديدة ومنهج جديد في الإيمان والوصول إليه:

يمثل القرآن الكريم مرحلةً جديدة في المعرفة الدينية، لأنه جاء «تعليماً». ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ﴾ (الرحمن/١ ـ ٢)، وجاء يبني الإيمان بالله على التفكير والعلم: ﴿فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ (محمد/١٩).

والباحث في تاريخ الدين المنزل قبل مجيء الإسلام يمكنه القول بوجه عام إن العقيدة الدينية كان تُؤخذ عن الآباء، وهؤلاء عمن سبقهم من الأنبياء الذين تلقوها عن الله تعالى، وكذلك كان عامّة الناس بعد أن تطول الفترة بين رسالتين يقولون دائماً إنهم يتّبعون ما وجدوا عليه آباءَهم.

ولم يكن هناك تعليمٌ نظريّ مع «كتابة» العلم الذي يأتي به الوحي الآلهي ومع قراءته ودراسته وإثارة الأسئلة. وكذلك لم يكن هناك منهجٌ ظاهرٌ ومرسوم لتحصيل العلم بالدين، ولا كان هناك بيانٌ محدَّد لمكان الإنسان في خطة الوجود ولا لرسالته الإيمانية الحضارية في الأرض، على أساس من العلم والمعرفة.

وإذا كان قد جاء في القرآن أن بعض الرسل الأوَّلين وجَّهوا عقولَ المنكرين لرسالاتهم وما فيها من الإيمان بالله بقولهم: ﴿أَفِي ٱللَّهِ شَكّٞ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ (إبراهيم/١٠). فإن ذلك كان شيئا إجمالياً، وكأنه تنبيه إلى استعمال الحواس والعقل على نحو طبيعي لا تكلُّف فيه.

رفع المسهم

فلما جاء الإسلام يبلغ الناس بوجود الإله الواحد الحق فإنه، في الوقت نفسه، من أول الأمر وبعد ذلك على نحو مستمر، وجَّه عقولَهم إلى تأمل هذا الكون في جملته وتفاصيله، لكي يلاحظوا ما فيه من آثار القدرة والحكمة والنظام والقانون في الطبيعة وظاهراتها، ولكي يتأملوا الإنسان أيضاً، كما يشعرون به في أنفسهم وكيانهم وتكوينهم وكل أسرار تحيط بهم، وسنرى ذلك فيما بعد، ولكي يروا كيف أن الكون الذي يشاهدونه بسماواته وأرضه مسخَّرٌ لهم وملائمٌ لحياتهم وحياة غيرهم من أمم الحيوان على الأرض. (ابراهيم/٣٢ ـ ٣٣، الجاثية/١٢ ـ ١٣، طه/٥٣ ـ ٥٤، عبس/٢٤ ـ ٣٢، فصلت/٥٣، الجاثية/٣ ـ ٤، الذاريات/٢٠ ـ ٢١).

القرآن بديلٌ للمعجزة:

وإذن، فإنه بمجيء القرآن كان عصرُ المعجزة على مستوى خرق المجرى العادي للطبيعة قد انتهى، وحل محلَّها العقل وأدلته، ومن هنا يحض القرآن على تدبُّر آياته لكي يضعها الإنسان بإزاء آيات الكون (النساء/٨٢، ص/٢٩، محمد/٢٤). والقرآن بما فيه من آيات، كما يقول، قد جاء ﴿لقوم يعقلون﴾[1] و﴿يتفكرون﴾[2] و﴿يؤمنون﴾[3] و﴿يوقنون﴾[4]، وهو ﴿ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ﴾ (العنكبوت/٤٩).

---

(١) انظر مثلاً: البقرة: ١٦٤، الرعد: ٤، النحل: ١٢، الروم: ٢٤، ٢٨، الجاثية: ٥.

(٢) انظر مثلاً: التوبة: ٢٤، الرعد: ٣، النحل: ١١، ٦٩، الروم: ٢١، الزمر: ٤٢، الجاثية: ١٣.

(٣) انظر مثلاً: الأعراف: ٥٢، ٢٠٣، يوسف: ١١١، النحل: ٦٤، ٧٩، العنكبوت: ٢٤، ٥١، الروم: ٣٧، الزمر: ٥٢.

(٤) انظر مثلاً: البقرة: ١١٨، المائدة: ٥٠، الجاثية: ٤، ٢٠.

رفع المسهم

وقد طلب المنكرون من الرسول عليه الصلاة والسلام أن يأتيهم بآية كما جاء بها من سبقه من الرسل (الانبياء/٥)، بل هم اقترحوا عليه خوارق عجيبةً معقَّدة ذكرها القرآن، فأمره الله أن يقول لهم:

﴿ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴾(الاسراء/٩٠ ـ ٩٣).

والله يقول في القرآن إنه لا يريد أن يقدِّمَ لمنكري رسالة الإسلام معجزةً، لأنهم رغم ذلك ربما يكذبون إو يُثيرون الشكوكَ (الأنعام/٤، ٧، ١٠٩، الإسراء/٢٩). كما يصرِّح بأنه يستطيع أن يقهر الناس على الإيمان (الشعراء/١ ـ ٤)، لكنه كما منحهم العقل فإنه يريد منهم أن يستعملوه لأنه هو الحجَّة عليهم يوم الحساب.

والقرآن يدلُّ قارئه على الطريق الموصل إلى الإيمان بالله وبصدق رسالة الإسلام وذلك بقوله:

﴿ وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۖ قُلْ إِنَّمَا ٱلْـَٔايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ (العنكبوت/٥٠ ـ ٥١).

فالقرآن إذَنْ هو البديلُ للمعجزة، والله يأمر رسولَه أن «**يجاهد به المنكرين جهادا كبيرا**» (الفرقان/٥٢)، وهذا يدخل في باب الكلام في إعجاز القرآن، وموضعُه في باب آخر من هذا الكتاب، لكننا لا بدَّ أن نشير الى الروح السارية في «الكتاب الحكيم»، ولا يدركها إلا صاحبُ الروح السليمة والعقلِ المتحرِّر من التقليد والهوى والمستعدِّ لِتَقبُّل العلم، كما لا بدَّ لنا أن نُنبِّه إلى أن القرآن اشتمل على الهداية المتكاملة التي لا يمكن لبشر أن يجمعها كما جمعها القرآن.، كما إننا نستطيع أن نخرجَ منه بنظرةٍ شاملة للوجود والكون والحياة، بقدر ما نحتاج إليه.

رفع المسهم

ويجب على من يقرأ القرآن أن يتفطّن خصوصاً إلى أنه جعل الإنسان يواجه الكونَ ونظامَه ويواجهَ نفسَه بعقله وبقوانينه التي فُطر عليها، بحيث لا يكون له مناصٌ ولا مفرٌّ، إذا هو عرف معنى العقل وقوانينه وأحسن استعماله، من الإيمان بأمرين:

الأول: وجودُ الله الذي صنع هذاالعالم فوضع الدليلَ على وجوده أمام المفكر بعد أن بين له المنهج.

والثاني: أن هذا القرآن من عند الله الذي صنع الكون والعقل وجمع بينهما ليدلاَّ عليه، كلٌّ منهما بحسب طبيعته. وهذا يدخل أيضاً في باب الإعجاز العلمي للقرآن، وسنتناوله عند الكلام عن المعرفة وعن أدلة وجود الله وعن هذا الكون، بحسب القرآن.

وسيتبين للمفكر المتعمق أن حتميةَ دلالة الكون على صانعه موازية لحتمية دلالة صدق القرآن على الرسالة المحمدية، وأنه من عند الله بدليل صدق كلامه عن الكون الذي صنعه الله فدلَّ على وجوده.

وليس معنى هذا كله أن الرسول عليه الصلاة والسلام لم يكن مُؤَيَّداً بخوارق كثيرة معروفة وثابتة، وإنما المقصود أن تلك الخوارق قد توارت في التاريخ ولا يراها أحد، أما القرآن فهو الباقي والشاهد على الدوام على نفسه وعلى رسالة الإسلام.

وإن دراسة القرآن بالمعنى الكامل لم تنته بعد، رغم كل ما كتبه المفسرون، ولا ننسى أن التاريخ قد تغير، وأن الحضارة تطورت، وأن العلوم تقدمت تقدماً مذهلاً، وكشفت من أسرار التاريخ وأسرار الكون أموراً عجيبة، وكأن الفهم للقرآن كان ينتظر أن تنكشف لكي يستطيع قارىء القرآن أن يفهم آياتِه ويشعر بعظمة معانيها، إذا كان على علم بقوانين الحضارة والنتائج العلمية الصحيحة.

رفع المسهم

رسول أُمِّيٌّ علَّمه الله لِيُعَلِّم الأُمِّيِّين:

يدل التاريخ الديني والاجتماعي على أن العرب، وهم الأمة الأولى التي تلقت القرآن، كانوا في الغالبية العظمى على حال قريبة من الفطرة، أُمِّيِّين ليس بينهم من يقرأ ويكتب إلا أفرادٌ قلائل في المدن مثلاً.

وأما التدين الذي كان عليه بعضهم في مكة، فإنه كان بقايا بسيطة من التوحيد الذي أسسه إبراهيم عليه السلام ومعها شيءٌ من الشعائر والعادات، ولم تكن تحيط به حياة دينية بالمعنى الحق، ولا أيّ نوع من البحث النظري، وكان عامة العرب قد ورثوا عن آبائهم تقديس الأصنام، ومن هنا نفهم المعنى الكبير لقول القرآن: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢﴾﴾ (الجمعة/٢ وانظر الاعراف/١٥٨، العنكبوت/٤٨)

والرسول عليه الصلاة والسلام كان أُمِّيّاً، فعلَّمه الله لِيُعَلِّم الناس: ﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ (النساء/١١٣).

ومن هنا أيضاً نفهم أن القرآن كان بالنسبة لمن ظلوا على شيء من الدين تعليماً من الأساس لوضع أصول الإيمان الصحيح، وكان بالنسبة للذين وقفوا عند تراث الآباء وما فيه من وثنية نقداً شديداً في أكثر من آية (البقرة/١٧٠، المائدة/١٠٤، هود/١٠٩). وإلى جانب ذلك نجد أشدَّ التقريع لمن لا يستعملون ما وهبهم الله من وسائل تحصيل المعرفة (الأعراف/١٧٩).

رفع المسهم

وفي الحالَيْن كان التعليم يسير على منهج واضح هو استعمال ملكات المعرفة الحسية والعقلية لكي تؤدي وظيفتَها الطبيعية، وهي معرفة الحق، وخصوصاً الحق الأكبر، وهو «الحَقُّ المُبين»، «اللهُ رَبُّ العالَمين».

وكان إلى جانب ذلك في مقابل طريقة الذين لا يجتهدون في معرفة الحق ويقلِّدون غيرَهم تأكيدُ مسؤولية الإنسان مما وهب الله له من الحواس والعقل: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾ (الإسراء/٣٦).

بعض مميزات القرآن:

١ ـ القرآن خطاب إلهي عام

كما أن الله تعالى خاطبَ أرواحَ بني آدم جميعاً قبل مجيئهم الى الدنيا وأشهدَهم على أنفسهم برُبُوبِيَّته (الأعراف/١٧٢ ـ ١٧٤)، كما سنرى فيما بعد، فإنه خاطبهم في الدنيا على ألسنة رسله وأنبيائه، وقد اشتمل القرآن ـ وهو الهداية الإلهية النهائية ـ على الخطاب الموجّه للبشر جميعاً، كما قدمنا القول.

والكلام موجَّهٌ مباشرةً للرسول الذي هو المخاطَب الأول، منذ أن أمره الله تعالى بقوله: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ﴾ (العلق/١) ثم: «**يا أيها الرسول**»، «**يا أيها النبي**» والخطاب موجه بعد ذلك للجميع: للمؤمنين: ﴿**يا أيها الذين آمنوا**﴾، ﴿**يا نساء النبي**﴾، وللبشر جميعاً: ﴿**يا بني آدم**﴾، ﴿**يا أيها الناس**﴾، وقد يُخاطَب «الإنسان» باعتباره رمز النوع: «يا أيُّها الإنسانُ» فكان الخطابُ غيرَ مباشر لطوائف كثيرة.

رفع المسهم

لكن القرآن فيه خطابٌ متكرر لأهل الوحي السابق باعتبار أنه جاء مصدِّقاً ومكملاً لما عندهم: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾، وهذا خطاب عام، ﴿يا بَنِي إسرائيلَ﴾، وهذا خطاب خاص. والقرآنُ كما تكلّم عن الكتب المنزلة قبله بالتقدير فإنه تكلّم مع أهلها بالدعوة الهادئة الناصحة لهم بإخلاص، لكنه تكلّم بطريقة حاسمة مع الغُلاة منهم: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ كَلِمَةٖ سَوَآءِۭ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمۡ . .﴾ (آل عمران/ ٦٤) ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّ﴾ (النساء/١٧١، وانظر المائدة/٧٧).

وفي أثناء كل هذه الأساليب من الخطاب كان التعليم أو التنبيه يُلْقَى للجميع مباشراً أو غير مباشر، وكان بالنسبة لأهل الكتاب يصحِّحُ الآراء أو المواقف (مثلاً الأعراف/٦٥ ـ ٦٦) أو يشرح المسائل التي كانت موضعَ خلاف (المائدة/١١٦ ـ ١١٧، مريم/١٦ ـ ٣٥، آل عمران/٣٣ ـ ٥١).

٢ ـ القرآن تعليمٌ متدرّجٌ ومستمر:

جاء «الكتاب الحكيم» تعليماً من البداية: آياتٌ وسُوَرٌ تُتْلى على فترات فدخل على نحو مباشر في العقول وفي التطبيق العملي في أمور الدين والحياة، وهو قد كان متدرِّجاً في تعليم الرسول نفسه عليه الصلاة والسلام، لكي يستقرَّ العلم في قلبه الشريف فَيَثْبُتَ في دعوته:

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلۡقُرۡءَانُ جُمۡلَةٗ وَٰحِدَةٗۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَۖ وَرَتَّلۡنَٰهُ تَرۡتِيلٗا﴾ (الفرقان/٣٢).

وكان التعليمُ شيئاً فشيئاً للمخاطَبين بالوحي، لكي يتوفَّر لديهم الوقتُ للفهم والتفكير والعمل وإثارة الأسئلة، وقد حدث ذلك بالفعل، وتساؤلاتهم العديدة، مذكورةٌ في القرآن.

رفع المسهم

وكـان القرآن أيضـاً تعليماً مستمـراً ومتكرراً، لا لمجـرد التكرار بـل عـلى سبيل التأكيد الدائم لـلأصول الأسـاسية، وفي ذلـك بلا شـك تمكينُ الثقـة في نفس الرسول ﷺ وتقويتُه بصفة دائمة لكي يواجه المعـارضة والإنكـار، والحقُّ أن الـوحي كان دائم الـوقوف إلى جـانبـه في مختلف الأزمـات والمـواقف (مثـلا النحل/١٢٧، آل عمران/١٧٦، الأنعام/٣٣، الأحقاف/٢٥).

وكان القرآن تعليماً مستمراً ومتكرراً يتوالى في تعليم الجـماعات التي كـان بعضها يعقُب بعضا في اعتناق الإسلام، ومنها غيرُ المقيم بصفة دائمة، بل كان يغيب ثم يعود.

وكـذلك كـان التعليم في الموضـوع الواحـد يتكرر ويـزداد على فـترات، فيحمـلُ قومٌ مِنْـهُ شيئاً ويُبَلِّغـون غيرهم، ثم يتكـامل الكـلام، ويستطيـع كلُّ قارىء للقرآن، كـما هو الآن، أن يلتمس المعـرفة في كـل مسألـة من المواضـع الخاصة بها بفضل المعاجم الكثيرة في آيات القرآن ومـوضوعـاته ومصـطلحاتـه وكل ما اشتمل عليه من أحكام.

وكـأن الله تعـالى قـد أراد بحكمتـه أن يُـراوِحَ في التعليم بـين تنـويـع الموضوعات وبين مراحل التعليم في الموضوع الواحد، وكان ذلك بمثـابة دروس في الموضوع تتوالى على فترات، ويتم فيها الاستيعاب ويسهل التقبُّل من جديـد ويشعر المخاطبون بلذة المعرفة، وهي تزداد وتتكـامل، وتـأتي في بعض الأحيان بحسب الأحداث والمشكلات أو إجابةً لتساؤلاتهم.

وقد كُتب القرآن في أثناء نزوله وتمّت قراءتُه والتفكُّر في آياته، وحُفِظَ كما أُنزِل وكما رتّبه الرسول عليه الصلاة والسلام ليكون صورةً أصلية صادقـة لمنهج التعليم النبوي، ولو أن القرآن تناولته بعد ذلك أيدي البشر بحسب طـريقتهم لما بقيت له أصالَتُه وروحه، وطريقته المتميّزة، ومن يضعْ نفسه بخيـاله في عصر

رفع المسهم

النبوة يدرك أنه عصر تعليم فريد في بابه، ولا نظيرَ له في تاريخ الفلسفة أو العلم والتعليم، ولا في تاريخ الأديان كلها، ويجب أن نعترف أن ذلك العصر لم يُدرس من حيث تعليم الدين والفكر وأمور الحياة الدراسة الكافية.

والقرآن فريد في تأليفه، وهذا يتبين مما تقدم، فنحن لا نجد أمامنا في القرآن كتاباً شبيهاً بمصنفات البشر التي يكتبونها لأغراضهم، وذلك لأنه كان بحسب طبيعة الظروف وتبليغ الوحي في مجتمع متكامل يزداد كل يوم، نوعاً من التعليم الجماعي الذي لا نعرف له نظيراً، لكنه كان في جملته وبجميع موضوعاته موجَّهاً نحو تكوين النظرة الشاملة المتكاملة في أكبر مسائل الدين والفكر.

٣ ـ تحول طريقة التفكير واتجاه المعرفة

وهكذا يستطيع الباحث أن يلاحظ الفرق بين طريقة العرب في تصورهم للأشياء وكذلك نوع معارفهم قبل نزول القرآن وبعده، فقد كانت عندهم معارف متفرقة بظاهرات الطبيعة في السماء والجو، وبطبائع الحيوان وأمور الإنسان في أحواله البدنية والنفسية، إلى جانب ما كان عندهم من مفهومات إنسانية ومعايير للأخلاق والفضائل التي كانت هي الغالبة في تفكيرهم وشعورهم بأنفسهم، وقد شرحنا ذلك في كلامنا عن أثر القرآن في الحضارة الإنسانية.

وهنا يجب أن نلاحظ أن تلك المعارف كانت من جهة متفرقةً لا تنتظمها أحكام كلِّية، وكانت من جهة أخرى لأجل الحاجة إليها في أسباب المعيشة، ولم تكن «على طريق تعلُّم الحقائق ولا على سبيل التدرُّب في العلوم»، وهذا ما قد لاحظه بحق أحد الذين درسوا معارف الأمم من علماء الإسلام، وهو صاعد بن أحمد الأندلسي (ت ٤٦٢هـ/ ١٠٧٠م) في كتابه «طبقات الأمم».

رفع المسهم

فلما جاء القرآن حوّل اتجاهَ الفكر من الاهتمام بالأمور العملية ومن النظرات المتفرقة إلى البحث النظريّ والتوصّل إلى أحكام كلية والاتجاه في تحصيل المعرفة إلى أنواع من الاستدلال الكبير الذي يُوصّل إلى العلم بمعناه الحقيقي، وكان ذلك في أهمّ المسائل التي دار حولها الفكر البشري واشتمل عليها القرآن كما سنرى.

وقد كان ذلك التفكير والاستدلال بالعقل على صورة ضمنية إجمالية، لكن بلغة الفكر الداخلية التي هي الأصل والمصدر لكل الصيغ اللفظية، وهذا ما لم يفطن إليه من درسوا إيمان المسلمين الأولين، وقد تحققت الغاية بحسب قوانين العقل الذي فطره الله عليها ولَمْ يَتَعَلَّمْها من أحد.

ومن يدرس آيات القرآن في تكاملها في كل موضوع على حدة يجد معرفةً متكاملةً في كل شيء، وعند ذلك يتبين له كيف تألفت في العقول على عهد الرسول عليه الصلاة والسلام النظرةُ الكافية في كل موضوع اشتمل عليه التعليم القرآني، ويتبين له أيضاً مدى عمق الإيمان في قلوب أولئك الذين تلقوا دعوة الإسلام وحملوها ومدى شدة حماستهم في الجهاد في سبيل الدعوة.

ثم إنه إذا كان ذلك كله قد تحقق على نحو تلقائي وإجمالي فإن الفكر تقدم بعد ذلك، وفي أثناء تطور الفكر الإسلامي في عصر الانفتاح على الفكر العالمي، ظهرت المفهومات ومعها مصطلحاتها، والمناهج ومعها قواعدُها والآراءُ والمذاهبُ ومعها أدِلَّتُها، وتمثل ذلك التطور في أنواع العلوم الدينية والعقلية، ولا يزال كل شيءٍ في ازدياد من حيث التفصيل، وكذلك لا تزال آيات القرآن تُشْرِق معانيها في العقول مع زيادة المعرفة، وخصوصاً في مجال الدراسات الكونية والإنسانية والاجتماعية والحضارية.

رفع المسهم

٤ ــ القرآن كتاب شامل:

﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴾ (النحل/٨٩).

قدمنا القول بأن القرآن قد اشتمل من حيث الجوهر على الدين كله، وهو إذا كان من جهة قد أحاط بكل «حق» في الديانات المنزلة قبله، فإنه من جهة أخرى كتابٌ شامل بكل معنى للشمول يمكن أن يتصوره الإنسان مِنْ موقعه في الكون وفي أمور حياته ومصدرها وقانونها ومصيره بعدها.

ونحن عندما نقرأ ذلك الحكم العام المطلق الذي تضمنته الآية الكريمة، فلنلاحظ أن القرآن يذكرها في سياق معين، هو كلامه عن شيءٍ قد لا يخطر على بال من جاءهم الوحي الإلهي، وذلك أن الله تعالى سيدعو الرسل لِيَشْهَدوا على أممهم بأنهم قد بلّغوهم ما أمرهم الله به وبأن عليهم أن يبلّغوا ذلك لمن بعدهم. وقد أراد القرآن أن ينبه أهلَ الديانات المنزلة إلى تلك المحاكمة التي تنتظرهم، وهم عنها غافلون.

ونجد مثل ذلك الحكم أيضاً في آيات أخرى وهي قوله: ﴿مَا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ﴾(الأنعام/٣٨)والآية تأتي في سياق التنبيه للغافلين الذين لا يدرسون ولم يعرفوا أن أنواع الحيوان أمم كالبشر، وأنها ستُحْشَر يوم القيامة وتُحاسَب ويُقْتَص للمظلوم من ظالمه[1]. والحق أن كثيراً من الناس يظنون أن الحيوانات لا عقل لها أو أنها وحوشٌ يفترس بعضُها بعضاً أو أنه يحق للإنسان أن يفعل بها ما يشاء، بلا عدالة لا بدّ أن تتحقق بالنسبة لعالم الحيوان وبلا حساب عما يصنعه الإنسان بالحيوان. وكلام القرآن هنا من شأنه أن يلفت نَظَر البشر إلى أنهم بفضل ما عندهم من العقل والمعرفة بالخير والشر أولى بأن

(١) هذا أحد الوجوه في تفسير الآية، ورجحه القرطبي.

رفع المسهم

يتمسكوا بالعدل وأن يبتعدوا عن الظلم بكل أنواعه، لأن وراءهم الحساب العسير على كلّ ما يفعلون.

وعلى كلّ حال فإن المفسرين للقرآن فهموا من الآيتين أن القرآن قد أحاط في أحكامه بكل شيء يخطر على البال، وذلك إمَّا على سبيل الإجمال أو على سبيل التفصيل في بعض الأمور الكونية والإنسانية. وكان بعض المفسرين يوجهون من يلتمس التفصيل في القرآن إلى أن يرجع للحديث الشريف والسنة النبوية وفيهما تفصيلٌ للقرآن.

فلننظر في المسألة في ضوء كلام القرآن عن بعض الكتب المنزلة قبل ثم لننظر ماذا في آياته من أنواع الإشارات لأصناف الموجودات التي يراها الإنسان أو يخطر على باله أن يعرفها، وبعضها، وهو كثير جداً، لا ذكر له في الكتب المنزلة قبله.

جاء في القرآن الكريم أن الله تعالى آتى موسى عليه السلام الكتاب ﴿تَمَامًا عَلَى ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ﴾ (الأنعام/١٥٤)، وأنه تعالى كتب له في الألواح ﴿مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾ (الأعراف/١٤٥).

وفي القرآن أنه هو نفسه ﴿تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ (يوسف/١١١)، وقوله بعد الإشارة إلى آيات الليل والنهار: ﴿وَلِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ وَكُلَّ شَىْءٍ فَصَّلْنَٰهُ تَفْصِيلًا﴾ (الإسراء/١٢).

وإذن، ففي كل من الكتابيْن ذكرُ التفصيل، وأول ما يتبادر للفهم أنه تفصيل في أمور الدين وتعاليمه والشريعة وأحكامها والحياة ونظامها، لكن القرآن بحكم أنه الهداية الإلهية المُكَمِّلة وأنه ربط بين الإيمان والعلم والنظر في

رفع المسيهما

ملكوت السموات والأرض، فلذلك أراد توسيعَ نطاق المعرفة، فتكلم عن أمور لا حصر لها، وتناول بكثير من إشاراته جوانب عديدة من هذا الكون الذي لا نعرف في الحقيقة إلا ظاهره، وهذا في حدود ما يسمى «عالَم الشهادة»، أي الذي تُدركه حواسُّنا، ونبَّه إلى أسرار الأشياء وقوانينها، ما نُبْصر منها وما لا نبصر، وما نعلم وما لا نعلم، (الحاقة/٣٨ ـ ٣٩، يس/٣٦)، وأشار كثيراً جداً إلى ما يسمى «عالَم الغَيْب» بمعناه العام البعيد وبالمعنى الخاص الذي حولَنا ولا ندركه، في الأرض التي نعيش عليها وفي السماء التي تراها أبصارنا: «**غيب السموات والأرض**» (مثلا هود/١٢٣). كما أشار إلى أنواع من الموجودات العاقلة المغايرة لنا والمتنوعة في طبيعتها، من الجنّ والشياطين والملائكة و«**جُنود السموات والأرض**» (الفتح/٤، ٧)، ﴿ **وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ** ﴾ (المدثر/٣١).

ومن جهة أخرى تناول القرآن مسائل العلم والمعرفة والمنهج وكل ما يتعلق بذلك من المفهومات، وتكلم، إلى جانب شرحه للعقيدة وأصولها وللشريعة وأحكامها الأساسية والتفصيلية، عن الموضوعات الكبرى التي دار حولها الفكر الديني والعلمي والفلسفي والاجتماعي، وجعلها في الوقت نفسه مسائلَ بحث وتَقَبُّل الاعتراضات والتساؤلات حولها وأجاب عنها: الإله تعالى، الكون، الإنسان، القِيَم الكبرى من الحق والخير والجمال، والقيم الاجتماعية الايجابية والسلبية، والأخلاق وقواعد المعاملة، وآداب الحياة العملية من شتى جوانبها ،وقوانين تغير الدول وزوال الحضارات وأخبار الأنبياء، وهنا أعطى صورةً حقيقية لأعمالهم وصحّح الكثير مما نسب إليهم في الكتب السابقة، وهذا كله فضلاً عن الكلام عما قبل هذا العالم، وعن تشكُّل هذا النظام الكوني في عملية كونية هائلة ومُذْهِلة، نرى أدلتها وآثارها اليوم، بعد أن بدأت منذ زمان سحيق وأظهر العلم نتائجها.

رفع المسهم

ثم إن القرآن تكلم عما قبل الحياة وتكلم عما بعد الموت كلاماً لا نجد له نظيراً في الكتب الأخرى وأبرز معالم نهاية هذا العالم وما سيصحب ذلك من ظاهرات كونية مروِّعة، وتحدث عن عالَم البعث والحشر والحساب ومصير بني آدم في الحياة الأخرى بعد أن يُحَاسبوا على أعمالهم.

وبالجملة فإن القرآن فيما يتعلق بالعالم المحيط بالإنسان، وبالإنسان نفسه، قد تناول كل ما يقع تحت الحس أو يخطر للفكر أو يجري في داخل النفس، والكلام في هذا كله ليس في سياق كلام عابر بل هو أحكامٌ مباشرة تنصبّ على الواقع وتصفه في ذاته من شتى الوجوه.

وفي «الكتاب المبين» مادةٌ غزيرة حول كل الموضوعات الكبرى التي تكلم عنها، إلى جانب التفصيل في جزئيات كثيرة، وتلك المادة كافية، لتكوين جملة من الأحكام الكلية المتكاملة والأحكام الجزئية في وقت واحد.

وقد ألفت الكتب الكثيرة حول شتى الموضوعات والمسائل التي ورد ذكرها في القرآن.

رفع المسهم

طريقة القرآن في التعريف ببعض المسائل

يجد القارىء في باب آخر من هذا الكتاب تفصيل القول في لغة القرآن وعبارته وأسلوبه، بين حقيقة ومجاز، وتشبيه وضرب مثل، ومُحْكم ومتشابه، ومجمل ومفصَّل.

والناظر في «الكتاب الحكيم» يلاحظ أن له طريقته في كلامه عن بعض المسائل الكبرى، مثل كلامه عن ذات الله تعالى وصفاته وأفعاله وتدبيره لأمور مخلوقاته، وعن أفعال الإنسان وأفعال الطبيعة، فهو يتكلم عن ذلك من وجهتي نظر متكاملتين، بحيث يستطيع المفكر المُتَدبِّر أن يصل إلى التصور الذي يريده القرآن.

والقرآن نفسه لم يترك قارئه يتحيّر في فهم آياته، فأعطاه المفتاح لفهمها مفردةً ومجتمعة، وهو يريد من قارئه أن يفهم المتشابه في ضوء المحكم، وبذلك يفسر بعض آياته ببعض.

ولا شك أن هناك حكمة كبيرة في قوله تعالى:

﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۘ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾، (آل عمران/٧).

وقوله ﴿الٓر ۚ كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ۝١﴾، (هود/١).

رفع المسهم

وليس من مرادنا أن نبحث مسألة المحكم والمتشابه في ذاتها، وإنما نحب، بحسب غرضنا هنا، أن يكون الوقوف في الآية عند قوله: ﴿**والراسخون في العلم**﴾، بحيث نفهم أن الراسخين في العلم هم الذين يعلمون تأويل المتشابه، وإلاَّ فكيف يكونون راسخين في العلم ـ والعلم في القرآن يدل على العلم بالحقائق لا بالمظاهر ـ إذا لم يكونوا قد تدبَّروا القرآن كما أمرهم الله فيه، وتحقَّقوا أنه ليس فيه اختلافٌ بين المحكم والمتشابه، لأنه كلَّه من عند الله، وذلك رغم ما يتوهمه من لا يتدبّر أو الناظر السطحي أو الغريب عن دراسة القرآن، وخصوصا المُغْرِض الذي يريد إثارة الشكوك حول «الكتاب الحكيم»، ويزعم أنه يوجد اختلافٌ، بل تعارض، بين آياته.

ومع ذلك فإني مؤمن بأن علم الإنسان بتأويل آيات القرآن إنما هو بقدر طاقته وفهمه، وهذا هو المطلوب منه، أما علم الله بمراده فهو له وحدَه، ولا يجوز المقارنة بين علم الإنسان وعلم الله، لكن لا يصح أيضا ترك مشكلة المتشابه لِتَضِلَّ فيها الأفهام، وبسببها يطعن في القرآن بعضُ من لم يفهم طريقته.

وقد كانت مسألة المتشابه سبباً في مشكلة اختلفت فيها الآراء والمواقف، وهي إنما نشأت من النظرة الجزئية لآيات القرآن من غير جمع بينها.

القدرة الإلهية الشاملة وأفعال المخلوقات:

على الأساس المتقدم أُحب أن أشرحَ مسألةَ العلاقة بين الإيمان بقدرة الله تعالى المحيطة بكل مخلوقاته، وبين شعور الإنسان بقدرته واختياره لأفعاله، وهذه مشكلة لها علاقةٌ بمسألة «القدَر» التي سنتكلم عنها فيما بعد، وكذلك أُحب أن أشرح العلاقة بين فعل الله وما يبدو لنا أنه فعل الخليقة مستقلةً بذاتها.

رفع المسهم

ولنبدأ بالقول إن القرآن في كلامه عن الله تعالى يُثْبِت له صفات الربوبية وحقوقَها المطلقة، فهو تعالى « **خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ** »، ﴿**على كُلِّ شَيْءٍ قدير**﴾، ﴿**بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ**﴾، (يس/٨٣). ﴿**مالِك المُلْك**﴾، ﴿**فَعَّالٌ لِمَا يُرِيد**﴾، ﴿**يَخْلُقُ ما يَشاء**﴾، ﴿**لا يُسْأَل عَمّا يَفْعل**﴾. والقرآن يؤكد في الوقت نفسه عدلَ الله وحكمته وفضله العظيم: فهو ﴿ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾، (النساء/٤٠)، والقرآن يقول في مواضع تخرج عن الحصر إن الله خلق كل شيء ﴿**بالحَقِّ**﴾، بكل ما لهذه الكلمة من معان متنوعة.

﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿٣٨﴾ مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (الدخان/ ٣٨ - ٣٩).

والله تعالى «**كتب على نفسه الرحمة**»، (الأنعام/١٢)، بمعنى أنها فيضُ لطفه بعباده وإحسانه إليهم، وهو « **أَحْكَمُ الحاكِمينَ** »، و« **أرحمُ الراحمين** »، « **ذُو الفَضْلِ العَظِيمِ** ».

والقرآن في الوقت نفسه يذكر ما للمخلوقات من فاعلية أو تأثير بحسب ما فطرها الخالق عليه من طاقات /و ملكات أو قدرات تصدر عنها أفعالُها، وهذا لا يحتاج إلى ذكر شواهد، لأن ذلك، خصوصا بالنسبة للإنسان الذي هو عاقل قادر مختار ومسؤول عن أفعاله، أساسُ التكليف من قِبَلِ الله تعالى.

ونحن لكي نفهم ذلك يجب أولاً أن نعلم حقيقةَ مفهوم الألوهية في القرآن: الله الخالق ليس هو ما تخيله الفلاسفة قديماً وحديثاً، بل هو مُبْدِعُ نظام المخلوقات، وهو: ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ﴾، (الأعلى/٢ - ٣)، وهو ﴿ ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴾، (طه/٥٠)، أي أنه جعل لكل شيء طبيعته وخواصّه وما يمكن أن يصدر عنه من آثار وإفعال، وهو

رفع المسهم

تعالى يُمِدُّ الأشياء بالبقاء، وقد هيّأ لها كل أمور وجودها ومجالَ فاعليتها، وهي تستند في كل ذلك إليه.

وكما أنه تعالى ﴿يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا﴾، (فاطر/٤١) فهو يُمْسك أيضاً كلَّ ذرةٍ فيها بقدرته، ولا يخرج شيءٌ عن علمه وعنايته، ولولا الحفظُ الإلهي لنظام الكون لَغَرِقَ كلّه في بحر العدم دفعةً واحدة، لا في زمان، وكلُّ ذلك يصدق على الكائنات المزوّدة بالعقل والقدرة والاختيار وعلى الكائنات التي نعتبرها جمادات، مع أن في بعضها طاقةً أو طاقات تفوق تصور العقل، لكنها تخضع في الوقت نفسه للحتمية الظاهرة في نظام الطبيعة.

فإذا كانت نسبةُ الإلـه تعالى لمخلوقاته، بحسب القرآن، أنه « الخَالِقُ الحَافِظُ » وأنه ﴿بِكُلِّ شَيْءٍ محيطٌ﴾ و﴿على كُلِّ شَيْءٍ حفيظٌ﴾. فما هي نسبةُ المخلوقاتِ وأفعالِها إلى قدرته الشاملة؟.

لنذكر هنا أولاً أن الأشياء، على الرغم من أن لها ذاتيّتَها وطبيعتَها وفاعليتَها كما تبدو لنا، إلّا أنها بحكم استنادها إلى القدرة، لا يمكن أن تكون خارجةً، لا في وجودها ولا فيما يترتب على ذلك من أفعالها، عن قدرة الخالق، وهذا ما يقتضيه المنطق السليم على أساس مفهوم الخلْق والإبداع بالقدرة.

وإذا تصورنا الأشياء مستقلةً عن دائرة القدرة فإن تصورنا لها وكلامَنا عنها وعلمنا بها لا يتفق مع الحقيقة، أما إذا تصورناها في نطاق النظام الكُلِّي فإن كلامَنا يكون صحيحا، وليس في ذلك إخراجٌ لها عن مكانها في نطاق القدرة ولا إلغاءٌ لطبائعها وأفعالها فيما بينها، وهذا هو الأساس لما نجده في القرآن عندما يتكلم عن أفعال الإنسان وعن أفعال الطبيعة.

يقول القرآن مثلا، مُشيراً إلى الإنسان، ﴿وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾، (الكهف/٢٦). وهذا كلام واضحٌ وصريح،

رفع المسهم

وهو صادق بالنسبة للإنسان، لأنه يؤكد له مشيئته التي يشعر بها في نفسه، لكن القرآن يقول في أكثر من موضع: ﴿ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ﴾، (مثلا التكوير/٢٩). وهذا واضح أيضاً وحقٌ، لأن الإنسان نفسه، هو ومشيئته وظروفُ وجوده وفعله، كل ذلك في داخل النظام الذي وضعه الله في جملته وتفاصيله، ولا تناقضَ في ذلك.

والمقصود أن لا يغفل الإنسان، رغم وضعه البديع، وهو شعوره بقدرته الذاتية واختياره، عن أنه في داخل النظام الكلي، وأنَّ نظام الأشياء بيد الله، وهذا هو معنى قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّى فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَىٰٓ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّى لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا ﴾، (الكهف/٢٣ ـ ٢٤).

والمعادلة صعبة التصور عند من لا يدركون ما يسمى «النظرة التركيبية»، فيتوهمون أن بين آيات القرآن تعارضاً، وهذا قد وقع من غير المسلمين، بل من بعض مفكري الإسلام الذين تصوروا وجودَ مشكلة أو نوعٍ من الجبر والإكراه، مع أنه هو النظرة الصحيحة للأشياء وللعلاقة بين التدبير الإلهي المحيط وبين فاعلية المخلوقات.

أما التناقض فهو إنما يكون موجوداً إذا قيل: «مَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ، وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ»، ثم قيل في الوقت نفسه: لا مشيئة للإنسان أصلاً ـ هذا هو التناقض، وليس له وجود في القرآن.

وكذلك يُسْنِدُ القرآن للطبيعة أفعالَها، فيقول مثلا ﴿ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴿٥﴾ ﴾، (الحج/٥)، وكذلك يقول في حبة القمح مثلا التي توضع في الأرض ﴿ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ

رفع المسهم

مِّاْئَةُ حَبَّةٍ. .﴾، (البقرة/٢٦١)، وهذا هو الواقع الذي نشاهده، لكن هل الأرض أو الحبة أوجدت نفسَها؟ وهل هي العامل الوحيد في الإنبات؟ وأين فعلُ العناصر الطبيعية، ومن أين لَها طبائعُها وقُواها؟.

إن الأشياء كلَّها عِلَلٌ أو أسْبابٌ قريبة، وهي تترابط وتتسلسل إلى أن تنتهي إلى المصدر الأول لوجودِها ونظامِها، وهو الله تعالى.

وكذلك نجد في القرآن قوله: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴿٢٤﴾ أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا. .﴾، (عبس/٢٤ ـ ٢٨).

وكذلك قوله: ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ . . .﴾، (النمل/٦٠).

وهكذا نلاحظ أن الإنبات يضاف أحياناً إلى فعل الأرض أو الحبة، وأحياناً إلى الخالق، وهو في الحالين صحيح، من وجهتي نظر.

وإذا أردنا أن نتكلم عن المسألة كلها بحسب طريقتنا الحديثة في التفكير والتعبير قُلْنا إن القرآنَ يتكلم عن المخلوقات مُشِيراً إلى العلة الأولى، كما هو اصطلاح «الفلاسفة»، أو إلى «مُسَبِّب الأسباب»، كما يفضّل «المتكلمون»، ثم إنه قد يتكلم مُشِيراً إلى الظاهرات بحسب ما نشاهده من فعلها، لكي نعرف طبائعَ الأشياء، فالنظرة الأولى فلسفية، والنظرة الثانية علمية، والجمعُ بينهما هو النظرة التي يجب علينا أن نتدبر القرآن بعقولنا لكي نستخلِصَها من آياته وتتبين لنا الحقيقة الكاملة.

ويمكن من جهة أخرى أن نقول إن القرآن يتكلم أحيانا بحسب المظهر، وهذا بالنسبة للإنسان، وأحياناً بحسب الحقيقة في نفسها، ومن المعلوم أن كلَّ

رفع المسهم

العلم وكلّ الفلسفة قد قام على أساس التمييز بين المظاهر والحقائق، وكانت الحقائقُ على كل حال هي الهدف من العلم والفلسفة. «والحقُّ» هو مدار القرآن الكريم، في كل مجالاته وبكل معانيه.

ولقد كان يمكن لمن أرادوا فهم آيات القرآن التي تتعلق بذات الله وصفاته أن ينظروا إليها بحسب ما شرحناه، كما فعل بعضهم، وأن يضعوا كل الآيات التي توهم التشبيه لله بمخلوقاته في ضوء الآيات المحكمة التي لا خلافَ في فهم معناها، مثل قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾، (الشورى/١١) وأن يفهموا بعد ذلك قوله: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾، (طه/٥)، وقوله بالنسبة للذين بايعوا الرسول عليه الصلاة والسلام: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾، (الفتح/١٠) وغير ذلك من آيات الصفات.

الأمر الآلهي، الإذن الإلهي:

وفي القرآن الكريم مفهوماتٌ يمكن أن ندرك بعض جوانبها من النظر في الآيات والاجتهاد في فهم بعضها في ضوء بعض، من ذلك:

١ ــ **الأمر الإلهي**، من معانيه الكثيرة في القرآن: كلُّ ما بيَّنه الله لعباده من التكاليف الخاصة بأصول العقيدة وأحكام الشريعة ونظام الحياة في جملته، وكذلك تعلُّق قدرة الله بإبداع ما يريد: ﴿إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾ وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ﴾، (القمر/٤٩ ـ ٥٠).
والأمر الإلهي يشير إلى تدبير شؤون المخلوقات: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، (الأعراف/٥٤)، ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ...﴾، (السجدة/٥)، ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ

رفع المسهم

ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًا ﴿١٢﴾ ﴾، (الطلاق/١٢).

٢ ــ **الإذن الإلهي**، وهو، كما يؤخذ من كثرة ذكره في القرآن، يشمل كلَّ ما يحدث في العالم، وكأنه، والله أعلم، تفصيل التدبير الكلي، فلنقف عنده قليلا ونلاحظ أن القرآن لم يترك شيئاً إلا أدخَلَه في مجال ذلك «الإذن»: تنزيل الوحي على قلب الرسول «بإذن الله» (البقرة/٩٧)، إطاعة البشر للرسل وخروجهم من ظلمات الجهل والكفر إلى نور العلم والإيمان، فعل الخيرات (النساء/٦٤. إبراهيم/١، فاطر/٣٢، يونس/١٠٠)، خلود الأبرار في الجنة (إبراهيم/٢٣)، معجزات الأنبياء، ومعجزات عيسى عليه السلام (الرعد/٣٨، آل عمران/٤٩)، النصر والهزيمة (البقرة/٢٤٩، آل عمران/١٦٦)، المصائب والأضرار (التغابن/١١، البقرة/١٠٢)، خدمة الجنّ والشياطين لسليمان عليه السلام (سبأ/١٢)، الشفاعة عند الله (البقرة/٢٥٥) وبكل اختصار: الأحداث كلها، من أصغر ما يقع إلى إمساك السماء لكي لا تقع على الأرض (الحج/٦٥) كل ذلك بإذن الله.

ثم لنتدبر قولَه تعالى عن الظاهرات التي ستصاحب نهايةَ هذا الكون وتبدُّله:

﴿ إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ ﴿١﴾ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ﴿٢﴾ وَإِذَا ٱلْأَرْضُ مُدَّتْ وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ﴾، (الانشقاق/١ ـ ٥).

إن على القارىء أن يتأمل كلَّ ما ذكرناه ليفهم معنى قوله تعالى إن الأشياء تقع «بِإِذْنِ اللهِ»، وهو يدل على ما تقدم من أن الله «أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ» أي طبيعتَه وفاعليتَه، لكن ذلك في داخل القدرة المحيطة بكل شيء،

رفع المسهم

فهناك إذَنْ فاعليةٌ مع علاقة استناد المخلوقات في وجودها وإمكان فعلها إلى مشيئة خالقها.

ثم لنلاحظ قول القرآن إن السماء لما انشقت وكذلك الأرض لما «مُدَّت» أي استوى سطحها فأصبحت جبالها مسوّاة بالأرض، ﴿وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا﴾، ﴿وَحُقَّتْ﴾، فَهُنا سرٌّ رائع وتعبير عجيب، ومهما كانت آراء المفسرين التي على القارىء اللبيب أن يرجع إليها، فإن من معاني قوله: ﴿وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا﴾، أنها بحكم كونها مخلوقة ومستندةً إلى القدرة فإنها رغم طبيعتها وكيانها لا تستعصي على أمر الخالق وحُكمه.

ومعنى قوله ﴿وَحُقَّتْ﴾ هو أنها حقيقةٌ وجديرةٌ بأن يسري عليها التدبير، لأنها في نطاق القدرة.

وفيما ذكرناه مثالٌ يبين نسبةَ المخلوق وفعلِه إلى خالقه وتدبيره، والله أعلم.

رفع المسهم

العلم والمعرفة

يجد القارىء في الفصل الخاص بأثر القرآن في الحضارة الإنسانية تفصيل ذلك الأثر في أهم المظاهر في حياة الحضارة، أعني ازدهارَ الفكر كما يتمثل في العلم بفروعه والفلسفة في ميادينها الكبرى، وذلك أن القرآن هيّأ لذلك كله ظروفَ النشأة والازدهار، أما هنا فالكلامُ في أمور عامةً في العلم والمعرفة وعلاقة ذلك بالإيمان.

وإذا كان القرآن يأمر باستعمال العقل ويعظِّم «العِلْمَ» وَيُحضُّ على طلبه فإنه لا يكفي القول بأن العلمَ من الدين، بل هو الدعامةُ التي يقوم عليها الدين والإيمان به، لأن الإنسان العاقل هو المخاطب بالتعليم الإلهي، «والعِلْمُ» عمل العقل، والدينُ لا يفهم إلا به، ولا يمكن إقامة الحجة على صحة الوحي الإلهي وأنه من عند الله إلّا بالعقل، ولا يقوم الإيمان بحقائق الدين إلا بالعلم والدليل والبرهان.

وبحسب القاعدة العامة، وهي ما أوجَبَهُ القرآن من تدبُّر آياته، استطاع العلماء أن يستنبطوا مفهومَ «العلم» وأن يحدِّدوه، وأنه يتعلق بالأحكام الخاصة بالحقائق التي يتصورها العقل ويمكن الوصول إليها بأدلته، لتكونَ أُصولَ النظرة للأشياء، مثل حدوث هذا الكون وإثبات وجود الله وحقيقة الإنسان ومكانه في هذا العالم.

أما «المعرفة» فهي تتعلق بالأمور المحسوسة، من علامات ودلائل يمكن منها الاهتداء إلى وقائع وأحوال للأشياء أو التعرف على الأشخاص وما قد يكون في نفوسهم.

رفع المسهم

ولذلك فإن الآيات التي تنبه الإنسانَ إلى دراسة هذا الكون وما فيه للاستدلال على وجود صانعه تشير إلى أنها موجهة لقوم «يعقلون» أو «يتفكرون» أو «يعلمون» أو «يؤمنون» أو «يوقنون». . . . . ويستطيع من يشاء أن يتبين في هذه الألفاظ درجاتٍ أو مراحلَ للتفكير، بدايةً من ممارسة الوظيفة الفكرية إلى بلوغ نتائج استعمالها وما يترتب على ذلك من درجات «العلم والإيمان»، ولا نجد في القرآن أبداً التنبيه إلى النظر في نظام السموات والأرض وأنه موجّه لقوم «يعرفون».

أمّا مَفْهوم «المعرفة» فإنه يمكن استخلاصه من آيات مثل قوله تعالى في حق الأبرار السعداء في الآخرة: ﴿ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ ٱلنَّعِيمِ ﴾، (المطففون/٢٤)، أو في حق الفقراء المتعففين: ﴿ تَعْرِفُهُم بِسِيمَٰهُمْ لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا ﴾، (البقرة/٢٧٣)، وقوله في حق الجاحدين لدعوة الإسلام: ﴿تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمُنكَرَ ﴾، (الحج/٧٢).

ونجد في القرآن أن مفهوم «العلم» مرادف لمفهوم «الحقّ»، بمعنى «العلم الحق»، وكل منهما يقابل مفهوم «الظن» وهذا هو معنى قوله تعالى في حق «الدّهرية» الذين ينكرون وجود الخالق وينسبون الأحداث في ظهور الحياة والموت إلى الدهر: ﴿ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٢٤﴾ ﴾، (الجاثية/٤٥)، وقوله في حق الجاحدين لوجود الله ﴿ وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ﴾، (يونس/٣٦). وهنا مجالٌ للمقارنة بين مصطلح القرآن والمصطلح الذي اهتدى إليه العقلُ الذي خلَقه الله، عند الفلاسفة والعلماء قديما وحديثا.

وإذا كان هدف الفكر هو الوصول إلى «العلم الحق» فإن منتهى ذلك إلى «اليقين» وهو ضدُّ الظن (الجاثية/٣٢)، واليقين إلى جانب ما فيه من وضوح في

رفع المسهم

الفكر فيه نوعٌ من التجربة النفسية في داخل الذات (النمل/١٤)، وشيءٌ يوصف بأنه «ما وَقَر في القَلْب»، أي استقر بحيث لا تزعزعه الشكوك والأوهام التي لا أساس لها.

ولليقين درجاته، وهذا قد استخرجه العلماء من استقراءِ آيات القرآن، فمن ذلك «عِلْمُ اليَقين»، وهو ما يكون عن دليل نظري، مثل إثبات وجود الله من النظر في هذا العالم وأن الله قادر على خلق الأحياء وعلى إحياء الموتى، ومنه «عَيْنُ اليَقين»، وهو علم ذلك الشيء بالمعاينة التي يكون معها ثباتُ العلم في القلب، بحيث يهدأ ويطمئن، مثل سؤال إبراهيم عليه السلام أن يريه الله « كيف يحيي الموتى »، فأراه ذلك (البقرة/٢٦٢)، ومنه «حَقُّ اليَقِين»، وهو أن يعاني الإنسان الشيء فيدركه في ذات نفسه، وذلك مثل الرجل الذي استبعد قدرة الله على البعث فأذاقه الله الموتَ بالفعل، ثم بعثه فعاش ذلك في كيانه، وأراه أيضاً بالمعاينة كيف تبعث قدرةُ الله الحياةَ في الكائن الحي الذي كان قد أدركه البِلَى (البقرة/٢٥٩).

هذه هي درجاتُ اليقين من الناحية النظرية العامة، وهي مراتبُ حقيقية متمايزة. أما من حيث التفصيل في الحياة العادية للفكر فهناك يقينيات بعضها يقضي به العقل الذي خاطبه الله وبعث فيه الثقة بالوصول إلى المعرفة: من ذلك الأوَّلِياتُ البَيِّنَة بنفسها، وقوانين عقلنا، وأنواع الاستدلال الذي يقوم على أسس صحيحة للوصول إلى أحكام صحيحة، وهذا ما يطالبنا به القرآن في آيات كثيرة (يونس/٣٥، القلم/٣٦، الصافات/١٥٤، الجاثية/٢١، الزمر/٦، المائدة/٧٥)، والقرآن ينبِّه المفكر لكي لا يَنكصَ، بل يمضي في استخلاص النتائج من مقدماتها الصحيحة فلا ينحرف إلى الجدال على غير أساس (لقمان/٢٠)، ولا يتعرض لتناقض في حكمه (مثلا الأنبياء/٦٦ ـ ٦٧، الصافات/٧٥).

رفع المسهم

مواقف القبول، الشك لأجل اليقين:

القرآن يثق في العقل ويأمره بأن يعمل، ويشير أيضا إلى الشكوك التي أحاطت بآراء السابقين من أهل الأديان (النمل/٦٦، الشورى/٤٤، سبأ/٥٤)، ولما كانت حقائق الإيمان قضايا مطروحة فإن الموقف من أول الأمر ليس موقفَ قبول بلا تفكير، والدليل على ذلك أن تبليغ دعوة الإسلام كان مقترناً بالدعوة إلى النظر في آيات هذا الكون في ضوء آيات القرآن، وذلك قد يصل إلى حدود الشك لأجل اليقين.

ويروى عن الرسول عليه الصلاة والسلام، بمناسبة سؤال سيدنا إبراهيم عليه السلام الله أنْ يُرِيَه كيف يُحيي الموتى أنه قال: «نَحْنُ أولَى بالشَّكِّ مِنْ إبراهيم»[1]. والشك هنا ليس في قدرة الله على الخلْق والإحياء والإعادة بعد الموت، بل هو شكٌ في معرفتنا بأسرار القدرة وطموحٌ إلى معرفة كيفية فعلها.

ولذلك ظهر عند مفكري الإسلام ما يسمى «الشك المنهجي» منذ عصر مبكر مع نشأة علم أصول العقائد على يد المعتزلة، كما يرى الجاحظ في كتابه «البيان والتبيين»، إلى أن صار الشك منهجاً مطلوباً، بسبب كثرة الآراء وتضاربها وضرورة بناء العقائد على أساس متين، وهذا ما نجده عند الغزالي (ت ٥٠٥هـ/ ١١١م) (مثلا في آخر كتابه «ميزان العمل»، وذلك قبلَ ديكارت (ت ١٦٥٠م) بأكثر من خمسة قرون).

مصادر المعرفة:

بحسب ما جاء في القرآن من أن حكمة الله اقتضت أن يكون الإنسان

---

(١) الحديث في البخاري ومسلم وغيرها.

رفع المسهم

خليفةً في الأرض ليعمرها باسمه وإرشاده، فإنه تعالى أعدَّه لذلك من قبلُ وخَلَقه «في أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ» وهيأ لرسالته في الأرض، كما سنشرح ذلك في كلامنا عن الإنسان في القرآن، ثم إنه تعالى تولى الإنسان بالإرشاد والهداية من أول الأمر (البقرة/٣٨، طه/١٢٣ - ١٢٤)، وتوالت الرسالات الإلهية إلى بلوغ نهايتها في رسالة الإسلام.

والإنسانُ شأنه شأنُ كلِّ كائن حي على الأرض، ظهر مُزَوَّداً بكل الوسائل اللازمة لحياته على كوكبه، وهو يزيد على غيره بملكة التفكير المُبْدِع، على مستوى المعرفة بالكون وما فيه. والقرآنُ في أكثر من موضع يُذَكِّرُ الإنسان بما منحه الله من الحواس والعقل (المؤمنون/٧٨، الملك/٢٣)، ومن ذلك كلِّه تتبين مصادرُ المعرفة للإنسان.

أولاً: هناك مصادرُ فوقَ العادة:

* **التعليم الإلهي** على ألسنة الأنبياء، وهو «الوَحْي» الذي لا غنى عنه للإنسان كما سنشرح ذلك فيما بعد. والوحيُ في حقيقته علمٌ، وهو بحسب القرآن إمّا أن يُلْقِيَه الله في قلب النبي فيعلمه في نفسه وأنه من عند الله، «عَلَى بَيِّنَةٍ» من ربه.أو يكون كلاماً بِلُغةٍ إنسانية، فيسمعه النبي من غير أن يرى المتكلم، أو يكون كلاما هو تعليمٌ حقيقي بواسطة المَلك المُخَصَّص لذلك.

﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآئِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ إِنَّهُۥ عَلِيٌّ حَكِيمٌ ﴿٥١﴾ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾، (الشورى/٥١ - ٥٢).

رفع المسهم

* «الإلهام»، لغير الأنبياء، وقد يسمى «العِلم اللَّدُنِّي» أي الذي يأتي من عند الله مباشرة (الكهف/٦٥)، ويسمى عند الصوفية «الكَشْف» أو «الفتح»، وهم يصلون إليه بتزكية النفس فيعلمون حقائق لا يعرفها غيرهم.

* **العلم المغروز الكامن في النفس البشرية قبل المجيء إلى الدنيا، وهو علم بوجود الله (الأعراف/١٧٢ ـ ١٧٤)، ويمكن إماطة الحجاب عنه بتزكية النفس على منهاج الشريعة، وسنشرح ذلك فيما بعد.**

ثانياً: مصدر عادي للإنسان بوجه عام، والعلم هنا، مكتسب بوسائل المعرفة الحسية والعقلية، وكما أن البشر يعيشون في عالَم واحد بوسائل واحدة فإن ذلك العلم مشترك بينهم.

والقرآن الكريم جعل من هذا الكون المحيط بالإنسان النقطة الأولى التي ينطلق منها الفكر بالاستدلال على وجود الله وقيّد البشر بالنظر فيه بوسائلهم المشتركة لكي لا ينحرف تفكيرُهم عن الطريق الطبيعي الذي لا يمكن أن يكون موضع شك.

المنهج العام لتحصيل المعرفة:

اختلف الفلاسفة والعلماء في المعرفة: هل في عقل الإنسان أفكار يولد مزوداً بها Innate Ideas؟، وهل تحصل المعرفة بالحواس وإدراكاتها وحدَها؟ أم بالعقل وحده، أم بهما معا ـ هذا معروفٌ في بحوث الفلاسفة في المعرفة.

أما القرآن الكريم فهو يؤكد أمرين:

أولا: أن الإنسان يولد وهو لا يعلم شيئا عن هذا العالم، فعقله يشبه

رفع المسهم

صحيفة غير منقوشة Tabula Rasa ليس فيها معرفة كما يعبِّر أنصار المذهب الحسي ـ التجريبي في المعرفة.

ثانيا: أن الإنسان يحصل على المعرفة بواسطة حواسه وعقله معا.

﴿ وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ ﴾، (النحل/٧٨).

ولما كان القرآن يريد إقامة الإيمان على العلم المكتسب بهذه الوسائل فإنه يحمِّل الإنسان مسئوليته عنها، وعن النتائج التي يتوصل إليها. وإذا كانت الآية الكريمة تشير إلى وجوب البعد عن تقليد الغير في آرائه فإن ذلك يوجب على المؤمن أن يعتمد على ما يعقله ويعلمه بنفسه، ويوجب عليه أيضاً أن يتعلم كيف وعلى أي منهج يسير في تفكيره لكي يصل إلى الغاية المنشودة.

وهنا يجب أن نلاحظ أن القرآن يَعيب الذين لا يبتدئون في نظرهم من دراسة الواقع لكي يستنتجوا منه، بل يجادلون في الله ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ﴾، (الحج/٨).

وكذلك يعيب القرآن أولئك الغافلين الذين لا يستعملون حواسَّهم وعقولَهم (الأعراف/١٧٩) والذين يَسيرون بحواس وعقول مفتوحة، لكنهم يمرون بها على آيات السموات والأرض، ﴿ وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿١٠٥﴾ ﴾، (يوسف/١٠٥).

أما مسؤولية الإنسان عن ملكات المعرفة فإن القرآن يؤكدها بقوله:

﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴾، (الإسراء/٣٦).

رفع المسهم

وفي أمور المعرفة ووسائلها نجد أن القرآن يخاطب العقل بلغة الواقع لا بلغة المفهومات المجردة التي قد يجادل فيها البعض، وقد أدرك بعض العلماء ذوي البصيرة طريقةَ القرآن وانتفعوا بها، ومن أصدق كلامهم ما يقوله أبو الريحان محمد بن أحمد البيروني (ت ٤٤٠هـ/ ١٠٤٨م) من أن «القرآنَ لم ينطقْ في أمر صورة السماءِ والأرض، وفي كل شيءٍ ضروري، بما يُحْوج إلى تعسُّفٍ في التأويل، فهو في الأشياء الضرورية معها حَذْوَ القُذَّة بالقُذَّةِ، ولم يشتمل على ما اختلف عليه الناس وأُيِسَ من الوصول إليه» (كتاب مقولات الهند، ص ١٣٢).

ونحن، وإن كنا نوافق أبا الريحان بوجه عام إلا أننا نوصي بوجوب التأمل العميق في لغة القرآن عند كلامه عن الكون لمعرفة الدلالة المباشرة، وغير المباشرة، والمُستَنْبَطَة، سواء في اللفظ المفرد أو في القضية والحكم، وسنرى شيئا من ذلك عندما نتكلم عن العالم في القرآن، فالواجب فهمُ الألفاظ بتطبيقها على وقائع الكون مباشرةً، مع الاجتهاد في معرفة الوقائع معرفةً صحيحة.

وبحكم طبيعة هذا المنهج الحسّي ـ العقلي، والحض المستمر في القرآن على النظر «**في ملكوت السموات والارض وما خلق الله من شيء**»، (الأعراف/ ١٨٥)، فإن علماء الإسلام ولا سيما المشتغلين بالعلوم الطبيعية والكونية، وضعوا أصول المنهج الاستقرائي وفصلوها، وأصحاب العلوم النظرية الذين آثروا المنهج العقلي الاستنباطي في بعض آرائهم، كالفارابي وابن سينا، لم يتجاهلوا منهج الاستقراء في جوانب من فلسفتهم، بل إن من المشتغلين بالعلوم التاريخية والاجتماعية من أخذ بمنهج الملاحظة والاستقراء لاستخراج قوانين تغير الدول والحضارات، كما نجد ذلك على صورة ممتازة عند ابن خلدون.

رفع المسهم

ثانياً ـ الموضوعات الكبرى
في القرآن الكريم

- العقائد.
- السموات والأرض وما بينهما .
- السُّنَّة الإلهية في تغيّر الدول والحضارات .
- الحق والخير والجمال.
- أخبار الرسل والأنبياء:
  - ابراهيم خليل الرحمن
  - عيسى رسول الله وكلمته إلى مريم

رفع المسهم

رفع
المساهم
عبد الله الرحيلي

العقـــائد

في القرآن الكريم مادةٌ غزيرة من المعرفة حولَ الموضوعات التي تناولها، ويستطيع من يشاء أن يؤلِّف منها نظرةً كاملة في كل موضوع على حدة.

أولا: العقائد:

من يقرأ القرآن ويتدبر آياته يلاحظ أنه إذْ جاء يبين العقائد فإنه قد حدَّدَها واضحةً، وجعلها موضوعات بحث تُقْبَل فيه الأسئلة بل الاعتراضات ثم يُحسم الخلاف بدليل العقل وبراهينه.

فالذي يريد أن يدخل في الإسلام يشهد على نفسِه بلسانِه وفكرِه بأنه لا إله إلاّ اللهُ وحدَهُ لا شريكَ لَهُ وأن مُحَمَّداً رسول الله، ثم يلتزم بالعبادات والواجبات التي فرضها القرآن: إقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، والحج إلى بيت الله الحرام في مكة إن استطاع إلى ذلك سبيلا.

أما ما يعتقده المسلم من حقائق الإيمان فهو واضحٌ تماما في أكثر من موضع، وجامعٌ لحقائق الإيمان التي جاء بها الرسل جميعاً، خصوصا على أساس ملة إبراهيم الموحِّد الكامل الذي امتثل لأمر الله وأسلم له على يقين وصل إليه بفكره (البقرة/١٢٤ فما بعدها، الأنعام/٧٤ ـ ٨٣، الصافّات/١٠١ فما بعدها).

وهذه هي أصول العقيدة.

﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ

رفع المسهم

وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ وَقَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴾، (البقرة/ ٢٨٥).

﴿ قُلْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿٨٤﴾ ﴾، (آل عمران/ ٨٤).

والقرآن يحدِّد موقفه الاعتقادي بالنسبة لأهل الكتاب منبهاً إيّاهم إلى «مِلّةِ إبْراهِيم»، الذي يعترفون به جميعاً.

﴿ وَقَالُوا۟ كُونُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ تَهْتَدُوا۟ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٣٥﴾ قُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِىَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٦﴾ ﴾، (البقرة/ ١٣٥ ـ ١٣٦).

ونحن قد أشرنا فيما تقدم إلى دعوة القرآن أهلَ الكتاب إلى الأصل المشترك بينه وبينهم وجاء به جميعُ الرسل، وهو التوحيد وتنقيتُه من كل شائبة (آل عمران/ ٦٤، الأنبياء/ ٢٥)، وإلى موقف المفكر المسلم إزاء موقف المخالفين من أهل الكتاب، (الشورى/ ١٥).

والقرآن، في الوقت الذي ينقد أهلَ الغُلُوِّ من أهل الكتاب أو المنحرفين منهم عما جاء به الوحي، يشيد بما للعلماء والأبرار من فضائل المحافظة على ما عَرَفوا من «كِتَابِ الله» (قوم موسى: المائدة/ ٤٤، الأعراف/ ١٥٩، وقوم عيسى: الحديد/ ٢٧)، ويذكر علامات الإيمان والخُشوع عند من اتبع الإسلام منهم فآمن على إيمان (الإسراء/ ١٠٧ ـ ١٠٩).

وعلى أساس من تصديق القرآن لما قبله وعدم إكراه أهل الكتاب على

رفع المسهم

دخول الإسلام، وبفضل ضمان حقوقهم وحريتهم وحمايتهم، ازدهرت حياتُهم الدينية والعقلية، وأمكن أنْ يساهموا في كل مظاهر الحضارة الإسلامية، على نحو ما شرحناه في الكلام عن أثر القرآن في الحضارة الإنسانية.

الله تعالى:

لفظ الجلالة: «الله» هو «اسمُ العَلَم» الذي يسمى به الإله الواحد الحق، ولا يُطلق على غيره، خلافاً للفظ «إله» الذي هو لفظ كُلِّيّ يطلق على كل ما جعله البشر موضوعَ تقديس، بحق أو بغير حق.

والله ليس، كما تخيله بعض الفلاسفة، علةً رمزيةً لهذا العالم وليس لها فيه خلق ولا تدبير ولا عناية بأي معنى حقيقي لهذه الكلمات، ولا هو نوعٌ من القوة المعنوية أو العقلية السارية في العالم. بل هو «**خالقُ كُلِّ شَيءٍ**» و«**ربُّ كُلِّ شيءٍ**» بتدبيره وعنايته «**رَبّ العالَمين**»، له كلُّ صفات الكمال والجلال والجمال والإكرام والإنعام، ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾، (الشورى/١١)، ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ ۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾، (الأنعام/١٠٢)، وهو ﴿**أرحم الراحمين**﴾ و﴿**أحكم الحاكمين**﴾، (يوسف/٦٤، التين/٨).

والقرآن ينظر إلى هذا الكون وكل ما فيه وما وراءه من مخلوقات لا نهاية لها، باعتبار أن ذلك كلَّه صادرٌ عن قدرة الله الذي أبرزَ الأشياء في الوجود، على غير مثال سبق أو من مادة أو في زمان أو مكان، وإنما كل ذلك فعله الإبداعي الأصيل الذي لا يعرف أحدٌ كُنْهَه ولا كيفيَّته، لأن أحداً لم يشهد خلْقَ السموات والأرض ولا يمكنه أن يتصور نوع الفعل الآلهي.

﴿مَآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ

رفع المسهم

مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا ﴾، ﴿الكهف/٥١).

فالله تعالى أبدع الأشياء بقدرته، على مقتضى إرادته وعلمه وحكمته، وأحاط بها علمه ووسعتها رحمتُه. (الأعراف/١٥٦، غافر/٧)، ﴿بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ ﴾، (يس/٨٣)، ﴿ لَهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾، (الزمر/٦٣)، ﴿ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ﴾، (سبأ/٣)، ﴿بكل شيء عليم﴾، حاضرٌ لا نراه، ومستور حَجبنا عنه، ﴿يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ ﴾، (غافر/١٩)، «يعلم ما توسوس به النفوس» ، (ق/١٦)، ﴿ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾، (الانعام/٥٩).

والله على كلِّ شيْءٍ «رقيب»، «شَهِيدٌ»، «حَفِيظٌ»، «وكِيلٌ»، وهو حاضرٌ دائما مع خلقه بالحفظ والعناية والرقابة. ﴿... مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ ... ﴾، (المجادلة/٧).

والقرآن يؤكد أن الإيمان بالله الواحد الحق وبكل صفاته التي أكدها له هو جوهرُ الدين الحق، فلا دينَ ولا إيمان بغير ذلك، والأدلة على وجود الله ووحدانيته موجودةٌ في القرآن.

أدلة القرآن على وجود الله:

لما جاء القرآن يدعو إلى الإيمان بالله لم يكن ذلك مجرد خبر أو موعظةٍ، بل هو رَسَمَ الطريق لمعرفة الله. ومن كلام القرآن عن هذا العالم وما فيه من حجاج القرآن وجداله مع الجاحدين، وكذلك مما جاء فيه من أخبار الأنبياء وما

رفع المسهم

أشار إليه من موقف الإنسان بين الإيمان والكفر، استخرجَ العلماءُ أنواعاً من الأدلة، وهي متمايزةٌ ومنفصلةٌ عن أدلة غيرهم من عُلَماءِ أصول العقائد ومن الفلاسفة في الإسلام.

دليلُ الصنع والإتقان:

لما كان القرآن قد انفرد بين الكتب المنزلة بكلام شامل ومفصل أحيانا عن هذا الكون ونظامه وإحكام صُنعه وعن خلْق الإنسان وسائر الكائنات الحية، من شتى الوجوه فإن علماء الإسلام استخلصوا من ذلك كله دليلاً على وجود الله يُسمى «دليل الصُّنع والإحكام» أو «دليل الإتقان»، اهتداءً بقول الله تعالى عما خلق أنه «**صُنْع الله الذي أتْقَنَ كلَّ شَيْءٍ**»، (النمل/٨٨)، وتفصيل هذا الدليل أخذ صورة «الدليل الغائي» Teleological Argument عند الفلاسفة، لأنه يُبْرز ما في هذا العالَم من ارتباطِ الأشياء بعضِها ببعض، بحيث يتألف منها نظامٌ من وسائلَ وغايات ويصلح بها وجود «الكُلِّ» وحياة ما فيه من مخلوقات، خصوصا الإنسان، بحكم مكانه الرئيسي في هذا الكون الذي نراه.

ومن يتدبر آيات القرآن فإنه يستطيع أن يلاحظ منهجه في الإرشاد إلى طريق الدليل وقد نجده يضع قضيةَ الإيمان ثُمَّ يتكلم مباشرةً عن نظام الكون وينبِّه العقلَ لكي يمارسَ وظيفتَه.

﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦٣﴾ إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ

رفع المسهم

لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٦٤﴾ ﴾، (البقرة/١٦٣ ـ ١٦٤). قارن أيضا السورة نفسها (٢١ ـ ٢٤، وعَبَس/٢٤ ـ ٣٢).

ولنلاحظ ما في الآية من تنوع الموضوعات وترابطها، من أعمّ ما يمس نظام الكون في جملته إلى موضوعات جزئية تمسُّ حياةَ الإنسان.

وقد يذكر القرآن أولاً كثيراً من آيات الصّنع ودلائلِ القدرة والعناية، على مستوى نظام السموات والأرض وحياةِ الإنسان، وفي أثناء ذلك يأمر باستعمال ملكات المعرفة لكي يصل العقلُ من المقدمات إلى النتيجة، لأنه بعد ذلك يقول ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾، (الروم/١٧ ـ ٣٠).

وعلى أساس كلام القرآن عن الكون وعجائبه صاغ علماء الإسلام كالمطهّر المقدسي في كتابه «البدء والتاريخ» والكندي في كتابه «الإبانة عن العلة الفاعلة. . . .»، الدليلَ الغائي في عبارات مفصَّلة يمكن ذكُرها للمقارنة بإزاء ما كَتَبه علماءُ العقائد المسيحية (توماس الأكويني) والفلاسفة (Kant)، وهذا فضلاً عما ألّفه علماء الإسلام من كتب مثل «الحكمة في مخلوقات الله» للغزالي، و«حياة الحيوان» للدميري.

دليلٌ جدليٌّ منطقي:

في القرآن آياتٌ قصيرة نجد فيها تحليلاً للمشكلة، في مواجهة الجاحدين لوجود الله، وهي قولُه: ﴿ أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾ . . . . . أَمْ لَهُمْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾، (الطور/٣٥ ـ ٣٦، ٤٣).

رفع المسهم

وهذه هي الاحتمالات الممكنة:

- ان تكون هذه المخلوقاتُ قد ظهرت في الوجود من غيرِ علّة - هذا يرفضه العقل.
- أن تكون المخلوقاتُ أحدثت نفسها - هذا يرفضه العقل، لما فيه من تناقض.
- لَوْ فرضنا أن بعض المخلوقات أحدث بعضاً، فمن الذي أوْجَدَ نظامَ الكونِ كُلّه بسمواته وأرْضِه وإذن، فلا بُدَّ مِنْ خالقٍ حقٍّ.

تغير الأشياء ودلالته على وجود الله:

في القرآن آيات كثيرةٌ تتحدث عن إبراهيم عليه السلام، وتدل على أنه كان مفكراً يستعمل عقلَه ويجادِل قومَه الذين يعبدون الأصنام، ومن ذلك آيات تحكي تأمُّلَه نظامَ السماءِ بَحْثاً عن إله، فيلاحظ أن أجْرَامَها، من كواكب وقَمَرٍ وشَمْسٍ، كلّها تظهر ثم تغيب، ولا ثباتَ لأحوالها، فلا يَرْضى بإله تتغير أحواله، ويرتفع فكرُه إلى تعليل نظام الكون في جملته فيقول: ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾﴾، (الأنعام/ ٧٤ - ٧٩).

استخرج العلماءُ من ذلك دليلاً على وجود الله سَمّوه «طريقَ إبراهيم»، وهو يتلخص في أن تغيرَ الأشياء يدلُّ على حدوثها وضرورةِ وجود مُحْدِثٍ لها لا يُشْبِهُهَا ولا يتغير. ونجد تطبيقاً لطريق إبراهيم على موضوعات أخرى: تطوّر الإنسان وتنقُّله في مراحل الخِلْقة قبل أن يُولَد وفي مراحل العمر طولَ حياته، مع علمه بأنه لم يُوجدْ نفسَه، ولا يمكنه التحكُّم في تطور أحواله، مما يدل على خالق خَلَقه، وهو الذي وضَع قانون وجوده، وهو الذي يَنْقُله من حالٍ إلى حال (كتاب اللُّمَع . . . . لأبي الحَسن الأشعري)، (ت ٣٢٤هـ/ ٩٣٥م).

رفع المسهم

على أن في محاجَّة إبراهيمَ لِقومه نوعاً من دليل «المُراهنة» الذي اشتهر في الجدال مع المنكرين منذ أيام الفيلسوف الفرنسي بسكال Pascal (ت ١٦٦٩م)، ولهذا الدليل أمثلة عديدة في آيات القرآن وعند علماء مسلمين (بحث المستشرق الإسباني بلاثيوس Palacios حولَ سبق المسلمين لدليل المراهنة عند بسكال).

ولما أراد الجاحدون أن يجادلوا إبراهيم ويخوِّفوه من آلهتهم قال لهم:

﴿ وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا فَأَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾ وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴾، (الأنعام/٨١ ـ ٨٣).

دليل الاضطرار والافتقار:

على أن في القرآن آياتٍ كثيرةً تتحدث عن حال الإنسان وشعورِهِ عندما تحيط به الأخطار المُهلكة في البرّ والبحر، فهو عند ذلك لا يلجأ إلى شيء مما يحيط به بل إلى مَنْ يُؤمن في قرارة نفسه بأن في يده قوى الطبيعة. ولنلاحظ أن هنا ذلك الإيمان المتأصل في النفس ولا يظهر إلا عند الشدة وزوال أنواع الشكوك المتكلَّفة والمكابرة والغرور بالآراء الزائفة، فعند ذلك تتكشَّف الفطرة عما فيها من إيمان بالخالق، وهذا الدليلُ يسمى «دَلِيل الاضْطِرار والافتقار»، وقد أخذه العلماء من آيات القرآن، (يونس/١٢، الإسراء/٦٦ ـ ٦٧، الروم/٣٣، الزمر/٨ ـ ٤٩). وللدليل صورة مفصّلة عند المُطَهَّر المقدسي في كتابه الذي تقدم ذكره.

رفع المسهم

الموعِظة، الـمُراهَنة، الأمثال:

وفي القرآن آيات كثيرة تدعو إلى الإيمان بالموعظة الحَسنة استخلَص منها العلماءُ أدلةً إقناعية فيها شيءٌ من التفكير المنطقي ومن روح «المُـرَاهَنةِ» الـذي تقدمت الإشارة إليه، نجد ذلك في غافر/٢٨ ـ ٣٣، يس/٢٠ ـ ٢٤.

أما «الأمثال» في القرآن فهي لُغَةٌ خاصةٌ لتقريب ما هو معنوي ومعقول إلى الفهم من طريق التعبير بما هو محسوس، وهي في القرآن كثيرةٌ، ولها تأثير عظيم في الدعوة إلى الإيمان، فمنها ما يصوِّر حال من يتخذ إلهاً من دون الله بأنه ﴿ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ ﴾، (العنكبوت/٤١).

والأمثال قد تصوِّر أعمالَ الجاحدين لوجود الله بأنها، حتى لو كان حسَنةً، تذهب هباءً لا يجدون بسبب جُحودهم المتعمَّد من يُجازيهم عليها، فهي ﴿ كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ فِى يَوْمٍ عَاصِفٍ ۖ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا۟ عَلَىٰ شَىْءٍ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ ﴾، (إبراهيم/١٨). أو تصف ما يرجونه من ورائها بأنه ﴿ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا ﴾، أو أن حياتهم وأعمالهم البعيدة عن الحق والخير والعدل ﴿ كَظُلُمَٰتٍ فِى بَحْرٍ لُّجِّىٍّ يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ ظُلُمَٰتٌۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا ۗ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ﴿٤٠﴾ ﴾، (النور/٣٩ ـ ٤٠).

هل يمكن أن يكون هذا المَثَل من وضع أحدٍ في مكة؟ إنه يصوِّر عاصفةَ شتاءٍ في محيط بعيد الغَوْر في ليلةِ شتاء مُـظْلِمة، فـأين خيال أي عـربي، وهو في جزيرته، من تخيل هذه الصورة الهائلة الرائعة؟

رفع المسهم

وقارئُ القرآن بعقل وروحٍ متفتحة للحقائق إذاهو تدبر الآيات ودرس ما فيها حولَ نظام الكون وتأمّل ما في القرآن من شريعة وأخلاق وآداب وطبَّقها على أمور الحياة فإنه لا بدَّ أن يؤمن بوجودِ الله وحكمته وأن يمتلىء قلبُه بالرهبةِ والإجلال لله، ولذلك يقول الله عن كتابه الكريم:

﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾﴾، (الحشر/٢١).

الحقيقة الإلـهية وتعاليها فوق إدراك المخلوقات:

إذا كـان الله تعـالى، بحسب محكم آيـات القـرآن ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ (الشورى/١١)، فهو متعالٍ عن إدراك مخلوقاتـه، ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا﴾، (طه/١١٠)، وإنما يعرفونه بدلائل صُنعه في الكـون وفي أنفسهم، وبعد ذلـك يجتهدون في تنزيهه ومعرفة صفاتِه بالاستدلال من مخلوقاتِه من غير تشبيه لصفاته بصفات المخلوقات. وهذا ما نجـده في القرآن الكـريم، فهو، حتى مـع وجود السؤال والمنـاسبة، لا يتكلم عن «المـاهِيّة» الإلهيـة ولا عن ذات الله المنفردة بمـا هي عليه، أعني «الهُوِيَّة»، أي عندما نسأل ونقول: من؟ لمعرفة ذاتية من نسـأل عنه.

ففي القــرآن أن فـرعــون سـأل مــوسى: ﴿ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾؟، (الشعراء/٢٣ ـ ٢٨)، ويسألـه أيضا: ﴿فَمَن رَّبُّكُمَا يَا مُوسَىٰ ﴾؟، (طه/٤٩ ـ ٥٤). ففي الحـالين كـانت الإجابـة بذكـر دلائـل الخلق والتـدبـير والعنـايـة بالإنسان.

وعـلى أساس هـذه الآيات يتبـين أنه لا سبيـلَ إلى الكلام عن «حقيقـة» ذات الله تعالى، ولا عن «الهُوِيّة» أعني الحقيقة المخصوصة المتميِّزة له، ولـذلك

رفع المسهم

ذهب العلماء إلى أن ذاتَ الله لا يمكن إدراكُها ولا تعريفُها بالمعنى المنطقي، وإنما يمكن، بعد قيام الدليل على وجود الله ووحدانيته وتنزيهه، أن يكون الكلام عنه بذكر آيات صنعه المحكم واستنتاج ما يمكن من صفاته التي يدل عليها الصنعُ، ولكنَّ صفاتِه أوسع بما لا يُقاس مما ندركه نحن في عالمنا، لأنه أحد العوالم الكثيرة التي خلقها الله.

ومن أجل هذا كله الذي تشهد به آيات القرآن (مثلا يونس/٥، الرعد/٢، الروم/٤٠، ٤٨، ٥٤)، فإن الله تعالى بعد أن تعرف إلى عباده بما يشاهدونه «**في الآفاق وفي أنفسهم**». عرّفهم بما له من صفات الكمال والجلال التي لا تخطر على بالِهم، ومن أمثلة ذلك قولُه تعالى:

﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ ﴿٢٥٥﴾ ﴾، (البقرة/٢٥٥).

وقوله:

﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٤﴾ ﴾، (الحشر/٢٢ - ٢٤).

وأسماء الله وصفاته في القرآن بما لا يقاس من صفاته في كل كتب الأديان أو الفلسفة، والقرآن يؤكدها دائماً في فواصل آياته، ومنها استخلص العلماء

رفع المسهم

«اسماء الله الحسنى»، والقرآنُ يرشد المؤمنين أَنْ يدعوه بها، ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾، (الأعراف/ ١٨٠).

وقد شرح العلماء أسماء الله وصفاته وصنّفوها أنواعاً من التصنيف على أسس متنوعة: ما يخص ذاتَ الله وما يخص علاقاته بالمخلوقات، ونحن لا نعرفُ من أسمائه إلا ما تتّسع له عقولُنا، ولا شك أن له أسماءٍ وصفاتٍ تَليق بجلاله وكماله الذي لا نهاية له، ولله «الاسم الأعظم» الذي يُعَرِّفُ به من يشاء من عباده.

إيمان الفطرة:

أشرنا فيما تقدم إلى أن الإيمانَ بالله فطرةٌ أصلية، هو « **فطرة الله التي فطر الناس عليها** »، (الروم/ ٣٠). وفي الحديث الصحيح أن «كل مولود يُولد على الفطرة، أي على الإيمان بالله وتوحيده. «ثم إن أَبَوَيْه يُهَوِّدانه أو يُنصرانه أو يمجّسانه. . . .»، ولكن في القرآن أياً آيات تدلُّ على أن أرواح بني آدم عَرَفت خالقَها في عالَم سابقٍ، وأن الإيمان به بمثابة «عَهْدٍ» أو «ميثاق» أخذه الله على بني آدم وهم أرواح مجردة، وفي «عالَم الذّرّ»، كما يعبرُ العلماء، أي أشْبَه بذرّات روحانية، وهذا هو قوله في القرآن:

﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ شَهِدْنَآ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿١٧٣﴾ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٧٤﴾﴾، (الأعراف/ ١٧٢ - ١٧٤).

الآيات واضحة، فالله تعالى خاطَب الأرواح، وهي بطبيعتها تعقل

رفع المسهم

وتَعِي. وبصرف النظر عن تنوع آراء المفسِّرين في كيفية ذلك الخطاب فإن الآيات تدل على أن الأرواحَ جميعاً أجابت وشَهِدت على أنفسها بالإيمان، عن معرفةٍ مباشرة، وذلك بقولها: «بلى: شهدنا».

وفي الآيات إشارة إلى أن ذلك الإيمان سَتَغْمُرُه حُجُب الوجود في الدنيا وتأثير ثقافةِ المجتمع، وخصوصاً عدم التفكر في هذا العالَم الذي هو الدليل على وجود الله، وكذلك تشيرُ الآيات إلى تأثير التقليد ومتابعةِ الآباء والأسلاف من غير تفكير، ولا ننسَى أن القرآنَ في مواضع عديدة يحارب التقليدَ والجمودَ على آراء السلف، ويَبْعَثُ العقول على التفكير المستقل (مثلا البقرة/ ١٧٠، لقمان/ ٢١، الزخرف/ ٢٢ ـ ٢٤).

والمهم أن الصوفيةَ، وخصوصا الشعراء منهم، تنبّهوا إلى ما تشير إليه الآيات، وأن الإيمانَ بالله كامنٌ في أعمال النفس البشرية، فأرادوا إماطة الحجاب عنه بتزكية النفس وإزالة مختلف الحُجُب، حتى تشعرَ الروح بذلك الإيمان مباشرةً، وهم في ذلك لا يتجاهلون طريقَ المعرفة الاستدلالية من النظر في الكون، لكنهم أرادوا أن يكون الإيمان، بعدَ حكم العقل، ذوقاً للروح، وهم في أشعارهم يذكرون آية الميثاق. ومن ذلك قول الشاعر الفارسي سعيد الشيرازي (٦٨٩هـ/ ١٢٩١م) يصف القَوْمَ وهم في ذكرهم لله تهتز أرواحهم بالإجابة عن سؤال ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾، وهذه ترجمة كلامه:

هُم في ذِكرِهم للحقِّ هارِبونَ من الخَلْق ... سُكارَى مِنَ السّاقي حتى أنهم أراقوا الشراب
«أَلَسْتُ» من الأزل في آذانهم حتى انهم ... وَهُمْ في وَجْدهم يقولون: بَلَى

ويرى أحد علماء الصوفية، وهو نجم الدين الكبرى في كتابه «فَوائح الجمال وفواتح الجلال» أن المعرفة بالله تعالى مثل الخط المكتوب على لوح وقع

رفع المسهم

عليه الغبارُ فاختفى، فإذا أُزيل عنه الغبار ظهرت الكتابة. فإذا زكى الإنسان نفسَه وطهَّر قلبَه تجلت له تلك المعرفة الكامنة.

صفات الله: الوحدانية:

كانت آيات القرآن بما اشتملت عليه من كلام متنوع عن ذات الله وصفاته وأفعاله سببا في أن البحث في ذلك تنوَّعَ وتشعب، ومن ذلك بحوث نظريةٌ في الصفات الإلهية من حيث إنها أوصافٌ لها علاقة بالذات، وذلك بقصد تحديد مفهوم الألوهية، عندما حدثت المواجهةُ بين مفهوم الألوهية والتوحيد في الإسلام وبين مختلف التصورات في المذاهب الدينية والفلسفية.

والمقامُ لا يتسع للدخول في تفاصيل الآراء التي يجدها من يشاء في كتب «علم أصول العقائد»، ونكتفي بتأكيد القول بأن الإيمان في الإسلام استقرّ على أن الله واحدٌ في ذاتِه وصفاته وأفعاله، لا يشاركه غيره في ذلك، ونظراً لوجود مذاهب دينية أو فلسفية تشوِّش التوحيد والتنزيه فإن القرآن عني بإثبات التوحيد في آيات صارت مصدراً للأدلة بحسب روحها العامة، وهي:

﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾، (الأنبياء/٢٢).

﴿ مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾، (المؤمنون/٩١).

﴿ قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّٱبْتَغَوْا۟ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا ﴾، (الاسراء/٤٢).

وهذه الآيات تدل بوضوح على ان القول بتعدد الآلهة يؤدي إلى فساد

رفع المسهم

نظام الكون، وبما أن النظامَ الكوني ثابت مترابط الأجزاء فإن هذا يدل على وحدة القدرة التي أوجدت العالم وهي التي تحفظه وتدبره.

على أن علماء العقائد اجتهدوا في وضع دليل الوحدانية على صورة نظرية نجدها في كتبهم ، كما أن فلاسفة الإسلام منذ أولهم، وهو الكندي، أثبتوا الوحدانية على طريقتهم الفلسفية.

ولنلاحظ هنا أن العِلْمَ القديمَ كان يقول إن هذا العالَم هو كلُّ شيءٍ، وإنه في داخل كرة مقفلةٍ تدور حول نفسها ومركزها الأرض، وكانت مظاهرُ وحدة العالم ونظامه واضحة، لكن ذلك التصور انْهارَ من أساسه في العصور الحديثة، وظهرت نظرياتٌ في نشأة هذا العالم وتشكُّله، لكن العلم الذي نعرفه اليوم قد أثبت وحدةَ المادة التي يتألف منها هذا الكون، وأثبت وحدةَ قوانينه الكبرى، وهذا يدل على وحدة القدرة التي أبدعته، وسنعرض لشيء من ذلك عند الكلام عن العالم في القرآن فيما يلي.

على أن في القرآن إلى جانب مفهوم التوحيد بمعنى «وحدانية الخالق»، و«وحدة نظام الخَلْق» أن الله وحده هو الخالق بالمعنى الحق وأن فعل الخلْق الإبداعي هو الدليل على الألوهية.

﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٧﴾﴾، (النحل/١٧).

﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾، (الأعراف/١٩١).

﴿هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١١﴾﴾، (لقمان/١١).

وهناك التوحيد بمعنى «وحدة التدبير الإلهي» التي أشرنا إليها، والتوحيد

رفع المسهم

بمعنى أن تكون حياة الإنسان كلّها على صلة بالله، فتكون أفعاله «في سبيل الله» و«ابتغاء مرضاة الله»، (النساء/١١٤). وأن يكون أعظمُ المحبة لله ثم محبة غيره «في الله» أو لأنه «من الله»، وأيضاً بمعنى رؤية الأشياء كلها في ضوء المعرفة بالله وشهود قدرته ورحمته وحكمته في كل شيء، وقد أشرنا إلى ذلك من قبل.

وعلى أساس آيات القرآن تكلم العلماء في مراتب التوحيد، من التوحيد باللسان، إلى التوحيد بالعقل والقلب، إلى تصور أن الأشياء كلها صادرةٌ عن الله وأنه لا موجود إلا الله ومظاهر قدرته وعلمه وحكمته، بحيث لا يشهد الإنسان إلا أمراً واحداً وهذا يسمى «الفناء في التوحيد» (الغزالي في «الإحياء، كتاب التوحيد»).

المخلوقات كلها تعبد الله

الله تعالى «**خلق كل شيء**»، «**رب العالمين**»، «**رب كل شيء**»، (الأنعام/١٦٤). وهو الذي يحفَظُه في الوجود ويرعاه ويهيء له مكانَه بين الأشياء ويعده لما أراده منه في خطة الخلق الشاملة. وإذا كانت المخلوقات كلها تشهد لله بالوجود والربوبية شهادةً يتوصل إليها العقل الذي ينظر في المخلوقات ونظامها في الأرض والسماء فإن القرآن يذكر في آيات كثيرة إسْلامَ الكائنات كلها وتسبيحها وسجودها لله، وبعض تلك الآيات تشير إلى كائنات عاقلة، بل أنواع من «الدوابّ» بالمعنى المفهوم على الأرض وموجودة في السماء، وها هي الآيات في ذلك كله:

﴿ أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾ ﴾، (آل عمران/٨٣).

رفع المسهم

﴿ تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤٤﴾ ﴾، (الإسراء/٤٤).

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ﴿١٨﴾ ﴾، (الحج/١٨).

﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن دَآبَّةٍ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٩﴾ ﴾، (النحل/٤٩).

﴿ وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾، (الروم/٢٦).

الآيات واضحة، مهما تنوعت آراء المفسرين، لكن يبقى السؤال: هل الإسلامُ أو السجود والتسبيح لا يكون دائما إلّا بالمعنى وعلى الصورة الإنسانية، بكلام أو حركة أو وضع مما نعرفه في العبادات؟ لا يصحُّ أن ننظر في كل شيء بالقياس إلينا، لأن كلَّ ما عرفناه عن أنواع المخلوقات ليس إلّا مظهراً بقدر وسائلنا في الإدراك، أما الأعماق فهي بعيدةُ الغور، ويكفي أن نتصور أن الذرة المادية التي لم يدركها الإنسان ولم يعرفها إلا بالاستدلال تمثِّل عالماً صغيراً يموج بالقوة، وقد تكون فيه أفلاكٌ كثيرة تدور فيها جسيمات، تسمى إلِكْتُرونات، فلا يصح أن نعتقد أن كل أحوال المخلوقات وأفعالها لا يمكن أن تكون إلا من نوع ما عندنا.

ولذلك فإن بعضَ المفسرين فهموا من سلوك الكائنات بالتسبيح أو السجود أن ذلك ليس مجرد الدلالة التي يدركها العقل على وجود الله، وإنما

رفع المسهم

ذلك كله بالمعنى الحقيقي على نحو يناسب كلَّ كائن على حدة، ويستدلون على ذلك بقوله: ﴿ولكن لا تفقهون تسبيحهم﴾، فإذا كانت دلالة الأشياء على وجود الله أمراً يدركه العقل فإن وراء ذلك أمراً آخر لا تدركه وسائلنا.

على أن السؤال عن معنى سجود الكائنات الجمادية مثل ما في قوله تعالى: ﴿ وَٱلنَّجْمُ وَٱلشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ۝٦ ﴾ (الرحمن/٦)، لا يخطر فقط للمفكر في عصرنا، لأنه خطر للأمير أحمد بن الخليفة العباسي المعتصم (ت ٢٢٧هـ/ ٨٤٢م) فوجهه لأستاذه أبي يوسف يعقوب بن إسحاق الكندي (ت حوالي ٢٥٢هـ/ ٨٦٦م)، فأجاب عنه برسالة كتبها، وفيها شرح السجودَ في ضوء النظرة العلمية للعالم، وذلك أنه بيّن أن من معاني السجود الطاعة، فقال إن الأجرام السماوية، وكذلك كل المخلوقات، تؤدي وظيفتَها في نظام الكون، بحسب إرادة بارئها، وهذه هي الطاعة أو السجود بالمعنى المجازي (رسالة في سجود الجرم الأقصى وطاعته لله عز وجلّ).

وإذا كنا نجد في القرآن قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلطَّيْرُ صَٰٓفَّٰتٍ ۖ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ ۝٤١ ﴾ (النور/٤١).

فإن الفارابي (ت ٣٣٩هـ/ ٩٥٠م) يقول في كتابه «فصوص الحكم»: «صَلّت السماءُ بدورانها، والأرضُ برجحانها، والماءُ بسَيَلانه، والمطرُ بهَطَلانه وقد تُصَلِّي له ولا تشعر، ولَذِكْرُ الله أكبر».

ولا نريد أن نذهب بالقارىء بعيداً، ولكن يكفي أن نعلم أن هذا الكونَ مملوءٌ بالأسرار، وهي ليست وليدةَ الوهم، بل حقائق عميقة لا ندركها، وهي تدخل في مجال «الغيب» الذي تحدث عنه القرآن بمعناه العام.

رفع المسهم

على أن من الناس من يقول إنه يرى الجن والملائكة ويسمع تسبيحَ الكائنات من نبات وحيوان، وهذا أمر خاص بأفراد، ولا يقتنع به الإنسان إلا بالتجربة.

الإيمان بالغيب:

إدراكات الإنسان الحسيّة والعقليّة هي في العادة محدودة ونسبية، على قدر عدد وسائلنا ومداها، فالحواس لا تنفذ في أعماق المحسوسات، والعقل في عمله يتعرض لتشويش الخيال عند الكثيرين من الناس، حتى في تصورات الفكرومقولاته فضلا عن أن هذه المقولات قد برزت في العقل من وجوده في هذا العالم الذي هو نوع من أنواع الموجودات التي لا عدد لها.

ولم ينشأ العلم ولا الفلسفة إلا بعد جهد جاهد بذله الفكر لكي ينفذ إلى ما وراء ما يحسه الإنسان أو يتخيله ويصل إلى ذلك المجهول المتواري، سواء أكان في صميم الواقع أم فيما وراءه، وبعبارة أخرى يحاول الفكر أن يصل إلى اللامرئي أو اللامدرك ولو بالفكر، وهذا مجال «الغيب» الذي يتحدث عنه القرآن وعن الإيمان به. وإذا كان القرآن قد جاء بالحق فإنه يريد أن ينبهنا إلى الحق كله: ما ندركه منه، وما يتجاوز حدود إدراكنا.

والحكمة في حديث القرآن عن «الغيب» أن الله تعالى يريد أن يوسع نطاق علم الإنسان ومعارفه في كل المجالات، وخصوصا أنه ينبِّه إلى حقائق كبرى كانت قبل هذا العالم وهذه الحياة، من ذلك بدءُ خلق السموات والأرض وخلقُ الإنسان وإعدادُه لرسالته في الدنيا، والحساب والجزاء في حياة جديدة في عالم جديد بعد الموت، والذي يهمنا هو أنه توجد مخلوقات مشابهة أو مخالفة

رفع المسهم

لنا، ووراء ذلك «غَيْبٌ» استأثر الله بعلمه، كما قال، ثم: «غيْب الغَيب»، وهو الله الذي ﴿**ليس كمثله شيء**﴾.

ونحن لكي نفهم معاني ألفاظ القرآن فإنه يجب علينا، بحسب قاعدة عامة، أن نستقرىء الألفاظ ونتدبر معانيها بحسب السياق. ولفظ «الغيب» يدل على أن منه ما هو حاضر يحيط بنا ولا ندركه، مع أنه قد يكون في متناول وسائلنا في الأرض أو بعيداً في السماء، لا تنفذ إليه وسائلنا، ﴿ **غيب السموات والأرض**﴾ (مثلا البقرة/ ٣٣)، ومنه ما قد توارى في التاريخ من أنباء الرسل وغيرهم (هود/ ٤٩، ١٠٠، ١٢٠، يوسف/ ١٠٢، طه/ ٩٩). لكن المهم هو ما وراء عالم الحس جملة، وأول ذلك أمر الكائنات التي تؤلف عوالم، منها في القرآن: «عالم الجن»، «عالم الملائكة»، بين أصناف كثيرة من الكائنات تدخل تحت مفهوم لفظ «العالمين» الذي نجده كثيراً جداً في القرآن.

عالم الجن:

أما الجن فهم كائناتٌ من طبيعة خاصة، خُلِقوا ﴿ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ ﴾ (الرحمن/ ١٥)، ﴿ وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ ﴾ (الحجر/ ٢٧)، وكان خلقهم قبل خلق الإنسان، لا تدركهم أبصارُنا، ولهم طاقاتٌ عظيمة وقدراتٌ على التشكل في صور حسّية، إلى جانب أنهم عقلاء مُكَلَّفُون كالإنسان بالأوامر والنواهي الإلهية. وقد تحدث القرآن عنهم أحاديث شائقة، وخاطبهم مع البَشَر، ﴿ يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ﴾، (مثلا الأنعام/ ١٣٠). ومنهم من كان في خدمة بعض الأنبياء، سليمان عليه السلام(النمل/ ١٧، ٣٦، سبأ/ ١٢، ١٤)، ومنهم المؤمنون ومنهم الكافرون، ومنهم من عرف دعوة الإسلام واستمع إلى القرآن وآمن وتحدّث عما سمع وعبر عن إيمانه ومعرفته بما كان قبل الإسلام، (الأحقاف/ ٢٩، سورة الجن).

رفع المسهم

عالَم الملائكة

والإيمان بالملائكة أيضاً أصلٌ اعتقادي، وهم ذواتٌ «نورانية»، كما يعبّر البعض، ويعرِّفهم العلماء بأنهم «ذواتٌ روحانيةٌ عاقلةٌ ومطيعة بطبعها لله تعالى» (الكشاف للتهانوي)، ولهم قدرات كبيرة وحياة شعورية، لكن طبيعتهم لا تدخل فيها نوازعُ الإرادة الذاتية ولا الشهوات، ولهم قدرة على التشكل في صور محسوسة تبدو للإنسان.

واستقراءُ آيات القرآن يدل على أنواعهم ودرجاتهم ووظائفهم وأعمالهم في عالمهم ﴿ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴿٢٠﴾ ﴾، (الأنبياء/ ٢٠)، ومنهم ﴿ ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا۟ وَٱتَّبَعُوا۟ سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿٧﴾ ﴾ (غافر/٧)، ومنهم في عالمنا من يتولون، بأمر ربهم، تدبير بعض أمور الكون أو يقفون إلى جانب المؤمنين يثبتونهم في مواطن الجهاد في سبيل الله، (**الأنفال/١٢**)، **هذا إلى رقابتهم على على أعمال الإنسان وأقواله، (الزخرف/ ٨٠، ق/١٦ ـ ١٨) وتولِّي أموره بعد الموت، وحضور الحساب والجزاء، إلى ظهورهم بعد تمامه كما صوَّره القرآن بقوله:** ﴿وَتَرَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾، (الزمر/ ٧٥).

والمسلم يؤمن بوجود هذه المخلوقات على أساس ماجاء في التعليم الإلهي، لكن يصعب على الإنسان بسبب ملابسته لعالم المادة أن يتصور كائنات غير مادية تتشكل في صور حسية، لكن «عالم الشهادة» الذي نعيش فيه يشير إلى إمكان ذلك، ويفتح المجالَ أمام تصور ما وراء المحسوسات، والإنسان يلاحظ أن «عالم الشهادة» الذي نعيش فيه مملوءٌ بأنواع التشكلات،

رفع المسهم

فـالجماداتُ مثـلا تتشكل وتتنـوع طبائعهـا بتأثـير عوامـل خارجـةٍ عنها، وهـذا معروفٌ في تاريخ عناصر الطبيعة، وكذلك الكـائنات الحيّـةُ من نبات وحيـوان تتشكـل بقوةٍ كـامنةٍ بـداخلها، وتبني لِنفسهـا كِيانـاً من مواد العـالم المحيط بهـا وتتصور بصور لا حصرَ لها في التنوع والجمال.

أما الجان أو المَلَك فهـو يتشكل بشيءٍ مـوجود في طبيعتـه، ولا عجَبَ في ذلك، لأنه إكمالٌ لدرجاتِ التشكل التي للمخلوقات، وبها تصـل السلسلةُ إلى ذروتِها بحسب عالمنا وما نعرف فيه وفي عالم بعدَه.

وعلى كل حال فإن القرآن يحدِّثنا عن جنود سليمان عليه السلام من الجنّ والطيْرْ الذين كانُوا في خِدمته، وقد علّمه الله « **منطق الطير** »، أي لغـة الطير، بل هو استمع إلى لغة النمل، ولا معنى لأن ينكر الإنسـان شيئاً من ذلـك، لأن الحيوانات، بحسب القرآن، ليست كما نتصورها، بـل هي «أُمَمٌ» لها تفكـيرها ولهـا وَعْيٌ تدل عليـه دلائل كثـيرة، ووسائـل للتواصـل والتخـاطب فيـما بينهـا وكذلك لها لغتها، ولا مانع من أن ينطقها الله بلغـةِ الإنسان، وهـذا من الأمور التي تتسع لها القدرة الإلـهية.

ويبقى السؤال: هـل في طاقـة الحيوان أن يعـرف ما يفعله البشر فينقـل مثلا إلى سليمان ما رآه من الاطلاع على أحوال مملكـة سبأ، كـما فعل الهُـدْهُد، (النمل/١٨ - ٢٤).

ومهما كان الأمر فإن بعض أصحاب المواهب يقولون إنهم يـرون الجنَّ أو يتعاملون معهم، ومن كبار الصوفية والعُبَّاد من يرون الملائكة ويتحدثون إليهم، ومنهم من يسمع ويفهم تسبيح الكائناتِ من نباتِ وحيوان. (والله أعلم)

رفع المسهم

الإيمان باليوم الآخر:

يمكن القول إن مدة حياة هذا الكون الذي نعيش فيه يومٌ من الأيام التي عند الله ولا يعرف مقاديرَها إلا هو، والقرآن يحدثنا عما قبل هذا العالم وما بعده، لكي يكمل نظامَ المعرفة بقدر ما تستطيع أن تتصورها عقولُنا، لكن الكلام في ذلك يجب أن يُفهم لا بحسب معاني الألفاظ بالنسبة لنا في عالمنا، بل بحسب ما يناسب عالما تختلف طبيعته في عالمنا.

والقرآن يؤكد أن الله قد خلق كل شيء «بالحَقّ»، ولكلِّ شيء «أَجَلٌ مسمى»، وهو مدة وجوده التي لا يتعداها. وبعض الفلاسفة تصوروا أن هذا الكون أزليٌّ أبديٌّ، أو تخيلوا قبله مادة أزلية أبدية، أما القرآنُ فهو يؤكد أن كل ما عدا الله فهو خَلْقُه وإبداعه.

وإذا كان الله يفعل بقدرته ما يشاء فإن الحكمة هي قاعدة للفعل الإلهي، فلا خلَل ولا عَبَث: ﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿٣٨﴾ مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ ﴾ (الدخان/٣٨ - ٣٩)، ومنطق الحكمة الإلهية من وجود الإنسان في الأرض بما له من عقل وقدرة وإرادة واختيار، وبما جاءه من الهدايات الإلهية، يقتضي أن يكون بعد أيام السموات والأرض يومٌ يتبدل فيه النظام كلُّه ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴾ (إبراهيم/٤٨).

في ذلك اليوم تَتِم الحكمة من وجود الإنسان وتكليفه، بأن يحاسبه الله ويجازيه بحسب ماعمل من خير وشر.

ويسمى هذااليوم في القرآن بأسماء عديدة، بحسب الاعتبار: «يوم القيامة»، «يوم البَعث»، «يوم الحَشر»، «يوم الدين»، «يوم الحساب»، «يوم

رفع المسهم

الحَسْرة»، أي حسرة الكافرين والمفسدين على ما فرّطوا، «يَوْمَ تَبْيَضُّ وجوهٌ وتَسْوَدُّ وجوه»، «يوم الخلود».

ويتميز كلامُ القرآن عن ذلك اليوم، الذي هو «قيامُ الساعة» بمميزات كثيرة وتفاصيل لا نجدها في كتب الأديان السابقة، إلا شيئاً يسيراً في بعض الأناجيل، «والساعة» ستأتي «بَغْتَةً»، «كَلَمْحِ البَصَر» أو أقرب من ذلك (النحل/٧٧)، وستصحب ذلك اليوم أحداثٌ كونية هائلة ومروِّعة وصفها القرآن: «ينشقُّ النظام السماوي، تتكوَّر الشمس، تَنْكَدِر النجوم وتنتثر الكواكب، تحمّر السماء، وتأتي بدخان مبين، تتزلزل الأرض، وتُحْمَل بما عليها من جبالٍ وَتُدَك «دَكَّةً واحدة» فتصبح الجبالُ هباءً مُنْبَثّاً في الفضاء.

وقد يتخيل من لا يتدبر آيات القرآن، ولم يعلم كيف تشكل هذا العالم، أن ما يقوله القرآن عن أحوال الساعة «نوعٌ من الترهيب للبشر لكي يقبلوا على الإيمان»، لكن تبدُّلَ نظام هذا البناء الكوني العظيم المتماسك بقوى كبرى وتحكمه قوانين ثابتة، لا بدَّ أن تصاحبه ضربةٌ كونيةٌ هائلة، ولذلك توصف الساعة في القرآن بألفاظ لا نعرفها في كتب الأديان، ولها دلالتها: «القارِعة»، «الصّاخَّة»، «الغَاشِيَة»، «الطامَّة الكبرى»، لكنها ستجيء بحسب قانون عظيم من قوانين الصنع الإلهي الذي لا يصح أن ننظر إليه من زاوية أحاسيسنا بالخوف والضعف، بل من زاوية الإجلال والإعجاب بحدث كوني يقع بحسب قوانين القدرة والحكمة معا، ولذلك فإن «الساعة» تسمى «الحاقَّة»، أي التي لا بدَّ أنْ تأتي وتتحقق وفيها تجري الأمور «بالحقّ»، ويكون الحكم في أعمال العباد «بالحقّ».

وعندما يقرأ المسلم أو غيره آيات قيام الساعة يجب عليه أن يسأل العلماء المتخصصين في العلم بهذا الكون وكيف تشكّل بشموسه الهائلة ومجراته الكبرى

رفع المسهم

وبأي قوة انفتق ذلك «الرَّتْقُ» الذي تحدث عنه القرآن، بحيث أخذت أجزاؤه الأبعادَ الهائلة التي يعجز الخيال عن تصورها، وليتصور الحالةَ الأُولى التي كان عليها تشكُّلُ ذلك الفَتق، وما صحبه من ظاهرات شبيهة بما يحدثنا عنه القرآن عن ظاهرات «قيام الساعة» وسيتبين له أن ذلك كلَّه يجري بحسب مبدأ واحد هو قول الله ﴿ يَوْمَ نَطْوِي ٱلسَّمَآءَ كَطَيِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ وَعْدًا عَلَيْنَآ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿١٠٤﴾ ﴾، (الأنبياء/١٠٤).

الإيمان بالبعث للحساب والجزاء:

هو أصلٌ اعتقادي في الديانات الثلاث، وهو من «الغيب المقبل» أو ما يسمى «السَّمْعِيّات» أي التي أخبرنا بها الوحي وسمعناها منه، والإيمان بالبعث يترتب على الإيمان باليوم الآخر وتقتضيه اعتبارات العناية الإلهية والضرورات الأخلاقية، للجزاء بحسب العمل في حياة مقبلة بعد هذه الحياة التي كانت بحسب القرآن دار «تكليف»، ولم تكن عبثا: ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ . . . ﴾ (المؤمنون/١١٥).

وقد جاء تأكيد البعث كثيراً في القرآن، والمقصود، كما يؤخذ من آياته أنه بعثٌ في أجساد، ومع أن القرآن لم ينصّ صراحةً على أن البعث سيكون بذات الجسد الذي كان للإنسان عند الموت، إلا أن المؤمنين بالبعث الجسدي يحافظون على الجسد عند الموت ويودعونه الأرض بمراسم محددة، ﴿ مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴿٥٥﴾ ﴾، (طه/٥٥)، لكن بعض أهل الكتاب لا يراعون المحافظة على الأجساد ويحرقونها، وهذا شيء شنيع حقا، لأن الجسد الآدمي ليس مجرد شيء بل كان أداةً للنفس في هذه الدنيا لتؤدي به ما فرضه الله عليها.

رفع المسهم

والقرآن إذْ يؤكد البعثَ يصور الخروج من القبور تصويراً حيّاً قويّاً مؤثّراً: «الأرض ستنشق، والقبور ستبعثر، ويخرج الناس منها أفواجاً مسرعين كأفواج الجراد المنتشر خاشعة أبصارهم، تغشاهم الذلة»، (ق/٤٤، الانفطار/٤، القمر/٧، المعارج/٤٣ ـ ٤٤).

والقرآنُ يردُّ على المتشككين في البعث ردوداً متنوعة، بحسب نوع السؤال، وهو يأخذهم بالرفق البالغ والمنطق الهادىء، والأساس الذي يقوم عليه خطابه لهم هو أن يَرْجِعوا إلى التفكر في «الخَلْق الأوّل» أو «النَّشْأة الأولى» للإنسان، وكيف بدأ وجودُه وتطوّر: من «طين» نُفخت فيه روحٌ علوية، إلى مرحلة تحوّلٍ جديدٍ تمثل في حياة التناسل التي نحن عليها، ثم التقلُّب بعد ذلك في مراحل الحياة المتنوعة، إلى أن تنتهي بالموت، وبعده تكمل السلسلة بالبعث والجزاء (ص/٧١ ـ ٧٢، المؤمنون/١٢ ـ ١٦). وقد نجد إلى جانب ذلك إشارةً إلى ظاهرة الحياة وتجدُّدها على مستوى الطبيعة (الحج/٥ ـ ٧). والقرآن هنا يريد من الإنسان أن يقيس إمكانَ البعث لحياة أخرى على ما يعرفه من أمور حياته ومن الواقع الذي يحيط به.

وقد كانت الأسئلة كثيرةً متنوعةً، والقرآن يذكرها ويجيب عنها، فإذا تساءل البعض: ﴿مَن يُعِيدُنَا﴾؟، جاء الجواب، ﴿قُلِ ٱلَّذِى فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾، (الإسراء/٥١).

﴿وَقَالُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٩٨﴾﴾، فجاء الجواب ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ﴾؟. (الإسراء/٩٨ ـ ٩٩).

ويقول الإنسان: ﴿أَءِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا ﴿٦٦﴾﴾؟ والجواب ﴿أَوَلَا يَذْكُرُ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْـًٔا ﴿٦٧﴾﴾؟، (مريم/٦٦ ـ ٦٧).

رفع المسهم

﴿ أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ ۝٣ بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُۥ ﴾ (القيامة/٣، ٤)، وقد يسألون: ﴿ أَءِذَا ضَلَلْنَا فِي ٱلْأَرْضِ أَءِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾، (السجدة/١٠)، أو ﴿ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَٰلِكَ رَجْعٌۢ بَعِيدٌ ۝٣ ﴾، والجواب ﴿ قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ ٱلْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظٌۢ ﴾، (ق/٣ - ٤).

ولنذكر آيات اشتملت على المسألة بإيجاز، وهي قد استلفتت نظر المفسرين بل الفلاسفة، فذكرها الكندي في رسالة له في إحصاء كتب أرسطو، ونظرا لما فيها من قصر العبارة وغزارة المعاني وإمكانيات الأدلة فإنه اقتبسها لتكون مثلا للعلم النبوي وما يتميز به في مقابل علوم البشر العادية، كما نجدها في الفلسفة بحسب طريقة الفلاسفة وما فيها من بعد السبيل عن العقل العادي، وهذه هي الآيات:

﴿ أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ۝٧٧ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ قَالَ مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٌ ۝٧٨ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِيٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ۝٧٩ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ۝٨٠ أَوَلَيْسَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ۝٨١ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ۝٨٢ فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِي بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾، (يس/٧٧ - ٨٣).

لنلاحظ أن الآيات تذكر:

١ ــ موقف الشك والتساؤل من جانب الإنسان وعدم تفطنه لكي ينظر في ذاته ليجد الدليل.

٢ ـ الجواب بأن القدرةَ التي ستبعث الموتى هي التي أوجدتهم من قبل.

رفع المسهم

٣ ــ مثال من الطبيعة يقرِّب للشاك إمكان ظهور الشيء (النار) من شيء (الشجر الأخضر) يبدو أنه مضادٌّ لطبيعة ذلك الشيء وتبعاً لذلك إمكان ظهور الحياة في مادة الأجساد البالية.

٤ ــ النظر إلى لمشكلة البعث في إطار مسألة أكبر هي خلق النظام الكوني بما فيه وأن الخلق والبعث جزءٌ من ذلك النظام.

٥ ــ بيان نوع الفعل الإلهي وأنه إبداع يتميز عن أفعال المخلوقات.

٦ ــ تأكيد القدرة الإلهية المحيطة بكل شيء.

والقرآن في موضع آخر يأمر باستقراء الطبيعة لنرى كيف يبدأ ظهورُ مخلوقات بالقدرة، لكي لا يشك الإنسان في إمكان النشأة الأخرى: ﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْءَاخِرَةَ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾﴾، (العنكبوت/ ٢٠).

على أنه يحسن أن نلاحظ أن القرآن لا يبين كيفية البعث، والحقُّ أنه ﴿خلق جديد﴾، ونحن لا نعرف كيف كان «الخلْقُ الأوَّل»، لأن معرفة «الكيف» لا تكون إلّا بالمعاينة إذا كان عند الناظر وسيلةُ الإدراك المناسبة، والقرآن يقول: ﴿مَآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا ﴿٥١﴾﴾، (الكهف/ ٥١).

وسواء كان البعثُ بذات الجسد الذي مات عليه الإنسان أو بجسد مماثل بدليل قوله: ﴿أن يخلق مثلهم﴾، فإن كُلًّا من النشأة الأولى والنشأة الآخرة للإنسان حَلْقتان في سلسلة من صنع الله الذي يخلق عالَماً بعد عالَم، ﴿ٱللَّهُ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾، (مثلا الروم/ ١١).

رفع المسهم

ويحسن بالقارىء للقرآن، في الأمور الغيبية التي يتحدث عنها القرآن، أن يتفطّن إلى أن «عالَم الشهادة» الذي نعيش فيه ينطوي، عندما نتعمق في أسراره، على تقريب كلِّ ما يحدِّثنا الله عنه من عالم الغيب إلى أذهاننا.

الإيمان بالقضاءِ والقَدَر:

هو أصل اعتقادي في الديانات المنزلة: فكل ما يقع في العالم، سواء من أفعال البشر أو غيرهم أو من فعل الطبيعة فهو «قَدَرٌ» أو «بِقَدَرٍ»، وهذا يؤمن به أيضا الفلاسفة المؤمنون بالله، من مسلمين وغير مسلمين.

وفي القرآن لفظُ «قضى» بمعنى: أَوْجَدَ أو أراد وجود الأشياء على ما هي عليه في جملتها، وهذا يؤخذ من قوله تعالى عن خلق السموات: ﴿ فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا ﴾ (فصلت/١٢)، وايضا بمعنى أمر أو أرادَ وحَكَم: ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ﴾ (الإسراء/٢٣).

وفي القرآن ألفاظ كثيرة، هي صيغ من الأصل الثلاثي «ق د ر» قَدَرَ يَقْدِرُ، قدَّرْنا، ولفظ قَدر (بفتح الدال وتسكينها)، «تقدير»، «مِقْدَار». واستقراء هذه الصيغ بحسب السياق يدل على ألوان من المعنى يمكن إدراكها بسهولة.

فنجد الدلالة على الحُكم والإرادة: ﴿ نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ ﴾، (الواقعة/٦٠)، وفي امرأة لوط نجد قوله: ﴿ قَدَّرْنَآ إِنَّهَا لَمِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴾ (الحجر/٦٠)، ونجد الدلالة على الكمّ المحدّد: ﴿ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴾ (الحجر/٢١)، ﴿ ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن

رفع المسهم

يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ ﴾ (العنكبوت/٦٢). ولَـمّا خَلَق الله الارض (**قدر فيها أقواتها**) (فصلت/١٠).

ونجد تقديرَ أمور اخرى: الزمان ﴿ وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴾ (المزمل/٢٠). تقدير الحجم والحركة: ﴿ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ﴾ (يس/٣٩). وتقدير المسافة: ﴿ وَقَدَّرْنَا فِيهَا ٱلسَّيْرَ ﴾ (سبأ/١٨)، المدة الزمانية أو الوقت من الزمان أو درجة الاكتمال... فالجنين يبقى في بطن أُمّه ﴿إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾ (المرسلات/٢١ ـ ٢٤)، وكذلك الوقت المناسب للأحداث التي اقتضتها حكمة الله: ﴿ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَٰمُوسَىٰ ﴾ (طه/٤٠)، ثم صنع الدروع بحسب التناسب بين أجزائها: فالله يوحي الى داود: ﴿ أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ ﴾ (سبأ/١١)، وتوصف القوارير في صنعها المحكم بأن الذين يقدمونها في الجنة ﴿قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا ﴿١٦﴾﴾ (الإنسان/١٦)، وذلك من حيث الحَجْم والشكل...

لكن في القرآن أحكام عامة مثل قوله تعالى: ﴿ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا ﴾ (الفرقان/٢)، أي أنه تعالى هيأ كل شيء لما أراده منه ومن خصائص وأفعال مثل تهيئة الإنسان للإدراك والفهم والنظر والتدبير واستنباط العلوم والصنائع المتنوعة ومزاولة الأعمال المختلفة إلى غير ذلك (البيضاوي).

ولهذه الآية الجامعة أمثلةٌ في القرآن، كقوله تعالى: ﴿ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴾ (طه/٥٠)، وقوله ﴿وَكُلُّ شَىْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ﴾ (الرعد/٨)، ﴿قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا ﴿٣﴾ ﴾ (الطلاق/٣).

في ضوء هذه الآيات المحكمة، يمكن ـ مع استقراء الألفاظ والتدبر في معانيها، القول بأن كل ما في هذا الكون قد ظهر إلى الوجود بحسب مبدأ

رفع المسهم

يَضْبِطُ كل شيء: طبيعة الأشياء وخواصها، والكمّ والعلاقة والتناسب بين الأشياء، على مقتضى أن الله قد خَلَق كل شيء «بالْحَقِّ».

لكن يسود في تفكير كثير من الناس كأن «القَدَر» نوعٌ من الجبر إلى حد أن الناس قد يعلِّلون الأعمال السيئة أو التي تنشأ عن التقصير وعدم استعمال القدرة والإرادة في قهر الهوى والشهوات أو عن الإهمال أو نحو ذلك، بأن يقولوا: هكذا أراد القدَر، هكذا قدَّر الله.

من الواضح أن هذا الموقف لا يمكن الدفاعُ عنه، لأنه يتنافى مع ما فطر الله عليه الأشياء من قُدْراتٍ ومَلَكاتٍ وطَبَائِعَ، فضلا عن أنه يتنافى مع التكليف الإلهي وإيجاب الواجبات على أهل الأرض ومحاسبتهم عليها. فكيف نتصور الأمر؟

هنا لا بدَّ من الرجوع إلى القرآن نفسه لأن بعضَه يفسر بعضاً، جاء في القرآن قوله تعالى:

﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾ وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ ﴿٥٠﴾﴾ (القمر/ ٤٩ - ٥٠).

هنا أمران، في الآية الأولى: تفصيل ظهور الأشياء والأحداث بحسب جميع الظروف التي تحيط بها، وهذا هو القَدَر بالمعنى الذي شرحناه على أساس تدبُّر آيات القرآن.

وفي الآية الثانية: «الأمْر» أو «القضاء» أو الإبداع الأصلي الكُلِّي، وهو «القضاء»، بمعنى إيجاد نظام الخلق بحيث يكون على ما هو عليه في أُسُس وجوده وما يترتب عليها من أفعال وأحداث.

ولكن، لمّا كان نظامُ المخلوقات في جملته قد صدَر عن قدرة الله

رفع المسهم

وحكمته، وكان بيده تعالى وجودُ «الكُلّ» وبقاؤه، فلا غَرْوَ أن يعتقد المؤمنُ المفكر أن كلَّ شيء يقع في الكوه فهو «بقَضَاءِ الله وقَدَرِهِ»، من غير إعتقاد أن الأحداث والأفعال تجري، وكأن العالم وما فيه مستقل عن قدرة الخالق وإرادته، ومن غير إنكار طبائع الأشياء وما فطرها الله عليه من أفعال.

وبعبارة أخرى فإنه، بحسب نظرية «التدبير الإلهي المحيط بكل شيء» و«الإذن الإلهي الشامل»، تقع الأحداث والأفعال كما قضى الله وقدّر بأن يكون نظام العالم على ما نراه، وهذا يؤمن به من عرف الله وصنعه المحكم.

هذا التصور يمكن أن نستخلصه من تدبر آيات القرآن، وقد كانت المسألة موضوعَ بحث واختلاف عند المتكلمين: بين مَنْ نسب كلَّ الأفعال والأحداث إلى الفعل الإلهي المباشر، فأنكر طبائع الأشياء، ومَنْ نسبها إلى المخلوقات دون خالقها، ومَنْ توسط بين الأمرين، كما شرح الغزالي مثلا بإيجاز في كتابه «الأربعين في أصول الدين» لكن القرآن قد أَرشَدَ إلى التصور الصحيح الذي ذكرناه، والله أعلم، وقد صارت المسألةُ موضوعَ بحث عند فلاسفة الإسلام وعند «علماء الكلام»، ومن هؤلاء متكلمون متفلسفون يحسن أن نذكر بعضَ آرائهم لا لكي ندرس المشكلة عندهم بل لكي يتبين كيفَ انطلقت آراؤهم من النظر في آيات القرآن.

فلنذكر على سبيل المثال تصور أول فلاسفة الإسلام، وهو أبو يوسف يعقوب الكندي، وذلك في كتاب له في «التوحيد» لم يُكْتَشَف بعد، لكن ابن عبدربه قد حفظ لنا منه في كتابه «العقد الفريد» (جزء ٢) نصاً يدل على تصور فلسفي للعالَم يستند إلى النظر فيما يراه الإنسان حوله من أشياء.

يقول الكندي إن الله خَلَق كل شيء بما له من صفات تجعل له طبيعته، لكن بحسب ما هو «أَصْلَحْ وأحكم وأتقن في بِنْيَةِ الكل».

رفع المسهم

ومن المخلوقات ما هو «مُضْطَرّ» أي مجبور، يقصد الأشياء الطبيعية التي ليس لها اختيار، ومنها ما له تمامُ القدرة والاختيار، كالإنسان ونحوه.

لكن المخلوقات ذات القدرة والاختيار تنقصها الحكمة الكاملة التي هي لله وحدَه «مُبْدِعِ الكُلّ»، فلو أنها كانت مطلقةَ القدرة والاختيار لتعدى فعلُها الحدود وأفسد «نظام الكُلِّ»، فلذلك قيّد الخالق نظام الأشياء بأن جعل بعضَها مؤثِّراً في بعض وبعضَها مناسِبا لفعل بعض، بحيث يمكن للمخلوقات ذات الاختيار أن تريد وتفعل أفعالها من غير إكراه لكن في حدود ما أراد الله من صلاح نظام العالم.

ويدل كلام فيلسوفنا بسهولة على أن «القَضاء»، كما يقول، هو إيجاد الأشياء بحسب ما قسمه الله لها من صفات، وأن «القَدَر» هو ما ينتجُ من علاقات الترابط والتفاعل بين الأشياء، وينتهي الكندي بأن يقول «فبالقضاءِ والقَدَر ساسَ جلَّ ثناؤُه جميعَ ما أَبدع بهذه السياسةِ الـمُحْكَمَة، التي لا يدخلها زَلَلٌ وَلاَ نَقْضٌ» ـ وهذه نظرةُ فلسفية إسلاميةٌ واضحة.

أما أفعال المخلوقات بوجه عام فهي تصدر عن طبيعتها كما خَلَقها الله، ولم يجد الكندي أن هذا يحتاج إلى دليل، لكن نظام العالَم بما فيه تحيط به قدرة الله «الـمُبْدِع الـمُمْسِكِ كلَّ ما أَبْدَعَ، فلا يَخْلو شيءٌ من إمساكه وقوته إلا باد ودَثَر» (آخر كتاب الفلسفة الأولى).

وللفارابي في كتابه «فصوص الحكم» تصورٌ للقضاء والقدَر يرتبط عنده بحسب فهمه «للقَلَم» و«اللَّوح»، بحسب ذكرهما في الإسلام، وأن كلا منهما مَلَكٌ، وهو يقول إن «القضاءَ يشتمل على مضمون أمره الواحد، والتقدير يشتمل على مضمون التنزيل بِقَدَر معلومٍ». لكن الفارابي من حيث الواقع الذي نشاهده، يرى أن كلَّ ما يقع في هذا العالم، سواءً كان فِعْلاً طبيعياً أو

رفع المسهم

اختياريا، لا بدّ له من سَبَبٍ، ثم تترتب الأسبابُ «مُسْتَنِدَةً إلى التقديرِ، والتقديرُ يستند إلى القَضاء، والقَضاءُ ينبعث عن الأمر، وَكُلُّ شيءٍ بِقَدَر».

ومن الواضح أن وراء تفكير الفارابي الآية التي سيأتي ذكرها.

ولابن سينا رسالةٌ في «القَدَر»، وهي عرض شائق يحتاج إلى تحليل، لأنه يصوِّر لنا «الوضع الإنساني» تصويراً دقيقا، والشيخُ الرئيس ينزع في رسالته منزع أهل السنّة من المتكلمين، لكن مع نظرةٍ علمية بعد تجربة شخصية يقول إنها أثْبَتَتْ له أن إرادة الإنسان وقدرَته ليست كلَّ شيء، وأن هناك تدبيراً آلهيا شاملا.

يقول ابن سينا إن الله عَلِمَ وقَدَّرَ الأشياء على ما هي عليه قبلَ خلقها، وهو يقصد «بالقدَر» شمولَ تدبير الله وتسييره نظامَ العالم، على حسب ما رتَّبه من نظام الأسباب والمسببات، لكنه لا يقول بالتقْدير القَهْري الصريح، وهو يشرح كيف تَصْدُر عن الإنسان أفعالُه، وهو بين مؤثرات من خارج ذاته وأُخرى من داخلها، وينضم إلى ذلك نوعُ التربية التي تهيّأت له والعادات التي تعوّد عليها، وعند ذلك يقوم صراع بين كلِّ تلك العوامل، فتقع الأفعال من الإنسان بحسب «أسباب رتَّبها القَدَر»، وهذا عند ابن سينا هو الوضع الذي أوجده الله.

ونحب أن نلاحظ أن لعلماء الإسلام مؤلفاتٍ كثيرة حولَ مسألة القضاء والقدر التي ظهر التفكير حولها منذ عهد الرسول عليه الصلاة والسلام، لكنه نهى عن الخوض في المشكلة في فترة تأسيس العقيدة الإسلامية، في وقت لم تكن العقول قد تهيأت تماما للبحث في هذه المسألة الخطيرة التي تمس العلاقة بين أفعال الله وأفعال المخلوقات، ولما سُئل الرسول ﷺ عن الحكم في أمر قدرة الله المُحيطة بكل شيء وعن أعمال الإنسان قال: «اِعْمَلُوا فَكُلٌّ مُيَسَّرٌ لما خُلِقَ له»،

رفع المسهم

وفي هذا الكلام الموجز تـأكيدٌ لقـدرة الإنسان ومسئـوليته في حـدود الظروف التي تتهيأ له ومقدرته على العمل الحقيقي الصالح في ظروف الوضع الإنساني العام.

فإذا أردنا متكلماً متفلسفـا وجدنـا الغزالي مثـلا يعتمد عـلى قولـه تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾ وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ﴾ (القمـر/ ٤٩ ـ ٥٠)، وهـو في كتابيـه «الأربعين. . .» و«المقصد الأسني» يتناول المـوضـوع، فيذكر «التدبيرَ الأول» أو «الأمر الكلي» الـذي هو «كَلَمْحٍ بِـالبَصَرِ»، وهو تعلّق قدرة الله وإرادته بوضْع نـظام الأسباب الكليّـة الدائمـة، وهذا هـو «حكُم الله وقَضَاؤُه»، ويذكر أيضاً توجيه الأسباب الكلية الثابتة إلى مسبَّباتها الحادثة بنـظام ومقادير محسوبة شيئا بعد شيء ولحظةً بعد لحظة، وهذا هو «القَدَر» الإلـهي.

ويجتهـد حجة الإسـلام في أن يقرب المسـألة كلَّهـا إلى الأذهـان بمثـال: فالتدبير الكلي وحكمُه يشبه تَصَوُّرَ آلة وصُنعَهـا، تتألف من أجـزاء كلٌّ منهـا له وظيفتـه وطبيعته لكنَّ فعلَهـا ومـا ينتُـج عنـه في داخلهـا وفي خـارجهـا، مهـما تسلسل، يقع بمقادير وحركات تنشأ عن جزء معين في الآلة، وكل ذلك يـرجع إلى إرادة الصانع، فَوَضْعُ نظام الآلـة في جملته يقابل «القضاء» وعمل الأجزاءِ، كلٌّ منها بما يخصه، هو «القَدَر» وكل ما يقع فهو بحسب تقدير الصـانع لـلآلة، لكن الغزالي ينبّه القـارىء إلى أن يجتهد في فهم الأمـور الإلـهية من غـير تشبيه للتدبير الإلـهي بتـدبير المخلوقـات، ووصفُ الآلة التي اختـارها الغـزالي وهي «صنـدوق الساعـة المائيـة» في عصره وصفٌ دقيقٌ، ويمكن اختيار مثـال آخر في عصرنا، لكن المهم في هذا كله هو تأكيد علم الله وتقديـره وتدبـيره لهذا العـالم من غـير إلغاء طبـائع الأشيـاء من جهة ومن غـير إخراجهـا عن دائـرة التـدبـير الإلـهي، وهذا لا يمكن إدراكه إلا بحسَب مفهوم رفيع للتوحيد، بمعنى وحـدة النظام الكوني المترتبة على وحدة الخالق القادر الحكيم، وذلـك يحتاج إلى تحليـل لا يتسع له المقام، وتكفي الإشارة إليه لكي يجعلَه المؤمن المفكر مـوضوعَ تفكـر عميق.

رفع المسهم

السموات والأرض وما بينهما في القرآن

يؤكّد القرآنُ دائماً أن الله ﴿رب العالمين﴾، ومهما تنوع التفسير للفظ ﴿العالمين﴾ فلا شك أنه يدل على صنع الله الذي لا نهاية له، لأنه تعالى خلّاق مُبْدِعٌ من الأزل إلى الأبد.

وقد اقتبسنا العبارة التي اخترناها لتكون عنواناً للكلام عن عالم كبير نشاهد بدايته أمامنا، ويؤخذ من آيات القرآن أن هناك ما هو أكبر من ذلك (مثلاً آل عمران/١٣٣، الحديد/٢١). لكن «الكتابَ الحكيم» يحدِّثنا خصوصاً عما نشاهده بوسائلنا، أما أعماقُه فهي بعيدةٌ بعداً قاصياً، غير أن الله جعل النظر فيما ندركه من ذلك سبيلاً إلى معرفته والإيمان بقدرته وحكمته وعنايته بالإنسان على كوكبه الذي جعله الله مُسْتَقَرّاً له ومتاعاً إلى حين (الجاثية/١٣، البقرة/٣٦).

والقرآن، بعد أن بين أن هذا الكون «**خلق اصيل على غير مثال سبق**»، ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ (البقرة/١١٧) ـ نبّه إلى جوانب أو أنحاء لوجود ما فيه لكي يجعلها الإنسان موضوعات لنظر العقل ودراسة الأشياء.

وقارىء القرآن يلاحظ أن كل ما تحدث عنه من آيات الكون موضوعُ بحث علمي، بل علوم كثيرة بالمعنى الإيجابي الحديث الذي يتناول دراسة وقائع الكون بحسب مناهج البحث العلمي، وإذا كان القرآن قد صرّح بأن في ظاهرات الكون وفي الإنسان وأمور حياته آيات «**للعالمين**» أو «**لقوم**

رفع المسهم

يعلمون» ويقول أيضاً بعد الإشارة إلى بعض الظاهرات الطبيعية: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا﴾ (فاطر/٢٨) فإنه صرّح بأنه المعرفة الأساسية الممكنة للإنسان بهذا الكون تعتمد على استعمال الحواس والعقل، وذلك بقوله:

﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾﴾، (النحل/٧٨).

أما الجوانب التي نبه إليها القرآن فهي موضوعاتٌ كبرى وعامة يجري البحث في إطاراتها، في شتى ميادين المعرفة بالكون، ولا يمكن في خارج إطاراتها العامة أن يقوم علم بجزئيات الأشياء من جميع وجوهها.

وقبل الدخول في ذلك كله يجب أن نشير إلى أن المصنفات في «علوم القرآن»، وهي مصنفات جليلة لعلماء كبار متخصصين على مر القرون، إنما تناولت خصوصاً دراسة القرآن نفسه من كل الوجوه: نزوله وتدوينه ولغته وأسلوبه وإعجازه وتفسيره ومحكمه ومتشابهه... وغير ذلك، وهي دراسة لم يحظ بها كتابٌ مُنَزَّل أو غير مُنَزَّل، بحيث تحقق تماماً في ضوء شواهد التاريخ الثابت معنى قول الله في القرآن: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٩﴾﴾ (الحجر/٩).

لكن تلك الكتب العظيمة لم تتناول الدراسة التحليلية للآيات التي تتحدث عن الكون، ومع أنها تعطي أحكاماً كلية عن الكون وما فيه وتنبِّه إلى القوانين التي تحكم الظاهرات أو تفسِّر وجودَها، إلا أن بعض الذين كتبوا في علوم القرآن من المُحْدَثين لم يميلوا إلى تفسير الآيات في ضوء المعرفة العلمية الحديثة الصحيحة، مع أن القرآن يدعو، بل يوجب، النظر في الآيات لتكون مشروعات لأبحاث كبرى نعرف منها صُنْعَ الخالق العظيم، ونستدل منها على أمرين: عظيم حكمته وإتقانه لما صنع، ونستدل أيضاً على عنايته بالإنسان

رفع المسهم

لكي يستخدم العلمُ بطبائع الأشياء ويستخدمها في مصالح حياته، لأن الله سخّرها له ليستطيع أن ينظم حياته وينشىء حضارتَه على كوكبه الفريد.

وإني أعلم أن كثيرين لا يميلون إلى دراسة آيات «الكتاب الحكيم» بحسب مُعطيات العلم. لكن إذا كان جميعُ المفسرين من أول الأمر قد اجتهدوا في تفسير الآيات الكونية بحسب ما عرفوه أو تخيلوه من دلالة آيات القرآن مطبقةً على موضوع الكلام، فماذا يمنع اليومَ من تفسيرها بحسب مانعرف من صنع الله الذي حدثنا عنه: «**بلسان عربي مبين**»، وذلك بوضع الألفاظ وما فيها من أحكام خاصة بالواقع بإزاء الواقع نفسه، لكي نعرفه أو ندرك الدلالة العميقة لما تشير إليه الآيات، إذا كنا في عصرنا نعرف عن ذلك حقائقَ ثابتة حولَ مختلف الأشياء التي ذكرها القرآن؟

على أنه قد كانت آياتُ الكتاب الحكيم سبباً في إيقاظ عقول علماء الإسلام جميعاً وتوجيههم إلى البحث في الكون، فأنشأوا العلوم الطبيعية والكونية بكل أنواعها متّخذين من آيات القرآن أصولاً في المعرفة بالكون، وأفكاراً قائدةً لهم في البحث، ومناهجَ وأهدافاً للوصول إلى المعرفة، لكن الكثير من الآيات لم يُدْرس الدراسة الكافية، ولا يمكن أن تتجلى معانيها إلا في ضوء المعرفة العلمية الحديثة، ولذلك نجد اليوم علماء مسلمين وغير مسلمين يؤلفون في علوم القرآن بالمعنى الذي نقصده، ويفهمون آياتِه فهماً جديداً، ومن تلك الآيات ما سيظل بلا تفسير مناسب إلى أن تتقدم المعرفة، ولذلك فإن القرآن كان ينظر إلى المستقبل البعيد عندما قال عن الإسلام والقرآن: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾﴾ (فصلت/٥٣).

وبحسب الطريقة التي نقترح، وأعتقد أنها هي الواجب، يمكن للباحث

رفع المسهم

أن يستخلص من القرآن أحكاماً عامة متكاملة عن الكون في جملته، وكذلك عن أجزائه الكبرى في السماء والأرض، ونستطيع اليوم أن نتحدث بحقٍّ عن «علْمٍ كونيّ قرآنيٍّ» أعني «كُوسمُولُوجيا قرآنية»، بالمعنى المعروف في العلم الحديث، وهو أن علم الكوسمولوجيا هو منتهى دراسة علم الفَلَك العادي، لأنه يتناول أموراً كُلِّية حولَ أصل هذا الكون ونشأتِه وطبيعتِه وتشكُّلاتِه وقوانينه العامة، وما يسميه العلماء «سلوك الكون»* ومدةِ وجودِه ومصيرِه ونهايته ونحو ذلك من أحكام. فأما دراسة أنواع الأشياء في السماء والأرض فهي موضوعاتٌ للعلوم الكونية الجزئية التي لا حصرَ لها. وكان علماء الإسلام قد ساهموا في ذلك بجُهودٍ أدت إلى الابتكار وسجّلها تاريخ العلم، وجاء المؤلِّفون فألفوا في ذلك مثل العالم الإيراني الكبير سيد حسين نصر (Seyyed Hossein Nasr) الذي ألَّف كتابَه «العلم الإسلامي» Islamic Science وكتابَه في «النظريات الكوسمولوجية الإسلامية» Islamic Cosmological Doctrines.

وكذلك ألف عالمٌ كبير هو أفضال الرحمن كتاباً عاماً بعنوان «العلوم القرآنية»

Afzalur Rahman: Quranic Sciences (The Muslim School Trust, London)

وقد اشتمل هذا الكتاب بإيجاز على كثير جداً من موضوعات العلوم الطبيعية المتنوعة والكونية مع الإشارة المستمرة إلى آيات القرآن.

والمؤلفات الحديثة في ذلك كثيرة في شتى بلاد الإسلام، بل هناك مجلات ظهرت في ذلك.

---

* Behaviour of the Universe

رفع المسهم

ومنذ أكثر من نصف قرن أراد الأزهر الشريف في القاهرة تثقيفَ طلبة «قسم الوعظ والإرشاد في كلية أصول الدين» بشيء من العلم الطبيعي الحديث بعنوان «سُنَن الله الكونية». وأسند التدريس للعالم الفاضل طيّب الذكر الأستاذ محمد أحمد الغمراوي، فكان هو الرائد في الميدان، وكانت الثمرة كتاباً له ظهر بالعنوان نفسه عام ١٩٣٦، ثم جمعت حديثا دراسات له شائق بعنوان «الإسلام في عصر العلم» والآن كثرت الكتب التي تتناول الإسلام والعلم أو آيات القرآن وتفسيرها بالعلم، وكذلك تعقد المؤتمرات حول «العلم في سياسة الدولة الإسلامية» Science in Islamic Polity، وحول القرآن وإعجازه العلمي (باكستان) وتعقد الملتقيات الفكرية الدورية حول الفكر الإسلامي في شتى ميادينه ، ومنها ما خُصِّص للقرآن وعلومه ، بل إن وسائل الإعلام في بلاد الإسلام تتناول آيات القرآن وتلقي الأضواء على معانيها بحسب المعارف العلمية الحديثة.

على أن كل ما ظهر من ذلك ليس سوى بداية، ولا بدَّ أن يتوفر على تفسير آيات القرآن الكونية متخصصون بالمعنى الدقيق يلتزمون بالفهم السليم لألفاظ القرآن وأحكامه الكلية في هذا المجال مع النظر في الواقع الكوني ومحاولة التفسير من جديد، بلا اعتماد على الخيال ولا على شيء يبعد بالآية عما تشير إليه بدقة.

جوانب كلية لهذا الكون في القرآن:

وقبل أن نتكلم عن الجوانب الكلية لنظام المخلوقات يحسن أن نشير بإيجاز إلى أن القرآن تناول كلَّ ما يقع تحت الحس من ظاهرات على الأرض وفي الجو القريب منها وفي داخل النظام السماوي، وهو إذا كان قد أشار إلى بعض

رفع المسهم

الأشياء على سبيل الإجمال أحياناً، فإنه تحدث عن مجرى بعض الظاهرات ومراحلها سواء ما يحدث في الجو مثل المراحل التي يسقط في نهايتها المطر (النور/٤٣) أو مراحل ظهور النبات على الأرض، مع الإشارة إلى جمال الطبيعة (عبس/٢٤ - ٣٢، الحج/٥، الشعراء/٧) أو عالم الحيوان من حيث أصنافه وما في بعضها من زينة وجمال يسعد به الإنسان (النور/٤٥، النحل/٨) أو مراحل تكوين الجنين في بطن أمه، ثم تَقَلُّب الإنسان في مراحل الحياة، (الحج/٥، المؤمنون/١٢ - ١٤)، هذا وقد أعطى القرآن أسماءً وألفاظاً واضحة لكل ما تحدث عنه، فوضع الأسس للمصطلح العلمي.

أما الجوانب التي أشرنا إليها فهي كثيرة ومتنوعة ومن أهمها:

أولاً: أن كل شيء له طبيعتُه السَوِيّة المتعادلة، وله مجراه وقانونُ وجوده، وذلك هو قوله: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ۝١ ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٢ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ۝٣﴾ (الأعلى/١ - ٣).

وقوله في الجواب عن سؤال فرعون لموسى: ﴿قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ (طه/٤٩ - ٥٠).

ثانياً: كلُّ شيء له كَمٌّ ومقدار: ﴿وَكُلُّ شَىْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ﴾ (الرعد/٨)، ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا﴾ (الفرقان/٢)، ﴿قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا﴾ (الطلاق/٣).

ثالثاً: كلُّ شيءٍ له «كَيْف» بمختلف المعاني التي تعبر عنها هذه الكلمة في القرآن، فهي قد تشير إلى تركيب الشيء أو هيئته ووظائف أعضائه، مثل الكائنات الحية: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ﴾ (الغاشية/١٧)، أو أن يكون شيئاً كبيراً على مستوى السماء وبنائها وما يدل عليه ذلك: ﴿أَفَلَمْ

رفع المسهم

يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوۡقَهُمۡ كَيۡفَ بَنَيۡنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٖ ﴾ (ق/٦)، وقد يكون الشيءُ ظاهرةً طبيعية في علم الضوء والظلال ﴿ أَلَمۡ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيۡفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ وَلَوۡ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنٗا ثُمَّ جَعَلۡنَا ٱلشَّمۡسَ عَلَيۡهِ دَلِيلٗا ۝٤٥ ثُمَّ قَبَضۡنَٰهُ إِلَيۡنَا قَبۡضٗا يَسِيرٗا ۝٤٦ ﴾ (الفرقان/٤٥ ـ ٤٦). وفي هذه الآية في قوله: ﴿**ثم قبضناه الينا**﴾ إشارةٌ إلى طبيعة الضوء ونوع حركته إذا اعترضه جسمٌ له ظلٌّ.

رابعاً: كلُّ شيء في نظام المخلوقات، ففي وجوده حكمةٌ وغايةٌ وله قانون، وهذا ما تَدُلّ عليه كلمة «بالحَقِّ» التي ترد كثيراً في القرآن عند الكلام عن نظام هذا الكون: ﴿ وَمَا خَلَقۡنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَا لَٰعِبِينَ ۝٣٨ مَا خَلَقۡنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾ (الدخان/٣٨ ـ ٣٩). ﴿هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ ٱلشَّمۡسَ ضِيَآءٗ وَٱلۡقَمَرَ نُورٗا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعۡلَمُواْ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلۡحِسَابَ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ يُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ۝٥ ﴾ (يونس/٥).

خامساً: وفي القرآن ما يدل على أن قوانينَ الطبيعة ثابتةٌ ما دامت على هذه الحالة التي أوجدها الله، وهذا ما يدل عليه لفظ «سَخَّرَ»، ومعنى التسخير هو تَسييرُ الشيء إلى تحقيق الغرض المختص به قَهْراً، (مفردات الأصفهاني) وهذا يشمل ظاهراتِ الطبيعة وقُوَاها جميعاً من الليل والنهار إلى الشمس والقمر والبحر والأنهار، بل «**ما في السموات وما في الأرض جميعا منه**» (الجاثية/١٣)، وكل ذلك بحسب نظام ثابت يخدم حياة الإنسان، ومنه أيضاً تسخير الحيوان (الحج/٣٦ ـ ٣٧) وتسخير الجبالِ تسبح مع داود عليه السلام والريحِ تجري بأمر سليمان عليه السلام (ص/١٨ ـ ٣٦).

سادساً: يجب أن نلاحظ أن ظاهرات الطبيعة لا تجري بقوى من ذاتها، كما كان يقول الفلاسفة القدماء، بل هي تجري بحسب التدبير الإلٰهي الشامل

رفع المسهم

الذي أشرنا إليه « **فالله هو الذي يُرْسِلُ الرياحَ فتثير السحاب وتسوقه الى الأرض الميتة** » (فاطر/٩) « **وينزل من السماء ماء فيحيي به الأرض بعد موتها** » (الروم/٢٤ - ٥٠)، وَلاَ يقع شيء في السماء ولا في الأرض إلا «بإذن الله».

وكذلك كل قوانين الطبيعة وفعل ما يقع فيها، كل ذلك في نطاق قدرة الله، فهو ﴿ إِن يَشَأْ يُسْكِنِ ٱلرِّيحَ ﴾ فلا تتحرك السفن (الشورى/٣٣)، كما يستطيع أن يغوِّر الماء (الملك/٣٠) أو يديمَ الليل أو النهار (القصص/٧١ - ٧٢)، بل أن يخسف الأرض بمن عليها (الملك/١٦)، كل ذلك يدل على أن قوى الطبيعة ليست حتمية، وهذا ما قد أصبح واضحاً بحسب تقدم المعرفة العلمية وما لوحظ من أن الأشياء في هذا الكون يرتبط بعضها فيما بينها، وبعضها يُهيىء الأسباب لبعض أو هو غاية للبعض، مما يدل على أن وراء ذلك قدرةً خلاّقة بحكمة واختيار، وقد أشرنا إلى ذلك من قبل.

لكن ليس معنى هذا أن أفعال الله تجري على قاعدة التعسف، بل إن ذلك تذكير للمكذبين والمغرورين بالسيطرة على الطبيعة، وقد حدث أنهم تدخلوا في أسرار الطبيعة وأرادوا استخدام ما فيها من قوة، ربما لأغراض لا تخدم مصلحة الإنسان، فكانت النتيجةً فساداً كبيراً أصابَهم وأصاب غيَرهم (أخطار انفجارات المفاعلات النووية).

سابعاً: وإذا كانت ظاهرات الطبيعة، رغم ثباتها واطراد قوانينها، تدخل في نطاق القدرة، فإن كل شيء في الكون من الجنين في رحم أُمه أو حياة فرد أو حياة أمة وحضاراتها أو نجم أو كوكب يجري في فَلَكِ ـ لَهُ « أجل مسمى » وهو المدة المحدّدة لوجوده، بل إن هذا الكون في جملته، بعد أن أبدعه الله أخذ يتشكل هو وكل شيء في المدة المقدَّرة له، وهذا هو «أَجَلُه» أو «زَمانُه» الذي هو عنصرٌ أو عامل من عوامل تكوينه وليس شيئاً قائماً بذاته خارجاً عن الأشياء، كما يتصور بعض الفلاسفة القدماء.

رفع المسهم

﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِم مَّا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ ﴿٨﴾﴾ (الروم/٨).

والقرآن صريح في أن هذا الكون بسمواته وأرضه، عندما يحين أجله وتجيء «الساعة» المحددة ليوم «القيامة» سينتهي أجله، ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ (إبراهيم/٤٨).

هذه بعض الجوانب العامة لنظام الكون في جملته، كما نجد ذلك في القرآن، وهو قد تكلم عن كل الظاهرات الكونية الكبرى وعن كثير جداً من الظاهرات الصغرى، ونحب أن نختار من ذلك أعظم الظاهرات التي أمامنا، وهي «السماء»، وقد تكلم القرآن عنها بعبارات عجيبة تحتاج إلى تفسير، مثل قوله: ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ﴾ (الذاريات/٧)، ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ﴾ (الطارق/١١) وأن السموات «سبع طرائق» (المؤمنون/١٧) أو أن الله جعل السماء ﴿سَقْفًا مَّحْفُوظًا﴾ (الانبياء/٣٢) أو أنها مُظْلِمَة، رغم ما قد نتصوره خلاف ذلك من وجود كل ما نراه فيها من النجوم والكواكب، وذلك هو قوله: ﴿وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا ﴿٢٩﴾﴾ (النازعات/٢٩)، وقد فسّر لنا العلمُ الحديث السببَ في ظلام السماءِ وَهُوَ عدمُ وجود ذرات جسمانية بعد الغلاف الجوي لكي تعكس الضوء، لأن الضوء نفسَه لا يرى إلا منعكساً من أجسام.

لكن يجب أن نذكر أيضاً أن القرآن تكلم عن السماء من وجوه كثيرة، منذ أن كانت «دُخاناً» في أول المرحلة الأخيرة من تشكل ذلك «الرَّتق» العظيم الذي فَتَقَتْهُ القدرة الإلهية، و«الدخان» هو ما يسمى السديم Nebule بلغة العلم الحديث، وتكلم القرآن عن بنائها، وهو بناءٌ قوي شديد، حتى أقسَم الله تعالى به: ﴿وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا﴾ (الشمس/٥)، ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ (الذاريات/٤٧)، ﴿وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا﴾ (النبأ/١٢)،

رفع المسهم

وعن تسويتها، أعني تعادلها بما فيها ﴿ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا ﴾ (النازعات/٢٨)، وعن تـوازُنِها بمـا فيهـا من النُجـوم، ﴿ وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ ۝٧ ﴾ (الرحمن/٧)، وعن انسجام أقسامها الكـبرى، فَلَا «تَفـاوُت» أي لا تنافـرَ بين تلك الأقسام (الـمُلك/٣)، وتكلم عن تلك النجوم التي لا تُحصى، والتي هي «سُرُجٌ وهَّاجَة»، أي مضيئة بنفسها، وكواكب تستنير منها وتعكس ذلك الضوء نوراً، فيكون كل ذلك زينة للناظرين: ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّٰهَا لِلنَّٰظِرِينَ ﴾ (الحجر/١٦)، ﴿إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ ۝٦ ﴾ (الصـافات/٦) وغـير ذلك من مميـزات للسماء التي نـراها، وهي بـداية العـالم العظيم الذي خلقه الله.

الأرض:

وكـذلـك تكلم القـرآن عن الأرض كـلامـاً يحتـاج إلى دراسـة علميـة: ﴿ وَٱلْأَرْضِ ذَاتِ ٱلصَّدْعِ ﴾ (الـطارق/١٢)، ﴿ وَٱلْأَرْضِ وَمَا طَحَىٰهَا ۝٦ ﴾ (الشمس/٦)، ﴿ وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴾ (النازعات/٣٠)، ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا وَٱللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِۦ وَهُوَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ (الرعد/٤١)، وأحب أن ألاحظ أن التفسيرات المتنـوعة لهـذه الآية مختلفة وغير كـافية، لأن الآيـة عامـة وتخص الأرض، وهي من نوع آيـة الرتق والفتق التي سنتكلم عنها فيما يلي.

لكن القـرآن يتكلم عن الأرض بعد انفتـاق ذلـك الـرتق الكبـير الـذي تشكل منه هذا الكون كله، ومن كلام القرآن يتبـين أن بدايـة نظام السمـوات واحـدة وهي «الأمر الإلهي الـواحد الكـلي» (القمـر/٥٠)، فكـل أشيـاء هـذا

رفع المسهم

الكـون لها عمـرٌ واحد، لكن القـرآن في سورة (فُصّلت/٩ ـ ١٢)، قـد خص الأرض بكلام محدَّد حولَ تَشَكُّلِها في المرحلتين الأولَيَيْن من المراحـل الستّ التي هي «الأيام» التي ذكرها القرآن، وهي عصورٌ متطاولـة لتشكّل الكـون، وكلامُ القـرآن عن الأرض يبين أن تشكلُهَـا كـان قبـلَ تشكـل السـماءِ وَقَبْـل أن يلتئم التشكل الكبير الذي جَمع بين الأرض والسماء في قـانون واحـد يشير إليـه، على سبيـل المجاز، قـوله تعـالى عن السماء: ﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴿١١﴾ فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفْظًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾ (فصلت/٩ ـ ١٢).

هذا ما نجـده في القرآن حـول تشكُّل النـظام الكوني، وهـو يختلف كل الاختلاف عما نَجدُه في أول سفر التكوين من التوراة، وهو يحتاج إلى دراسة مع اجتهاد لمعرفة الكون بوجه عـام، وإذا كانَ هـذا التشكل قـد بدأ كلُّه في لحـظةٍ واحـدة، بحيث يكونُ عمـرُه كلُّه واحـداً، فـإننـا نحتـاج إلى دراسـة أجـزائـه الكبرى، كلٌّ منها على حدة في داخل التشكل العام.

وقد دلت بعض الآراء في حساب عمر الكون على يد الفلكي الأمـريكي الكبـير Edwin Hubble (ت ١٩٥٣) على أن تشكُّـلَ الأرض أقـدمُ من تشكـل السماء، وخالفـه البعض في هذا الـرأي، لكن المسألـةَ ليست دائماً مجـرد تصور لسير تلك العملية الكونية، بحسب مجرى تلقائي يتخيله الإنسـان، لأن القدرةَ الإلـهية قد تتدخل في أثناء ذلك كلِّه تحقيقاً لحكمةٍ معينـة بالنسبـة لشيء معين، ولا بدَّ أن ظروفاً وعوامل خاصة تتعلق ببعض أجزاء الكـون قد طـرأت، وكان لهاتأثيرُها. . . وكـلامُ القرآن عـلى الأرض ليس قصةً بـل هو أحكـام عامـة، والكون لا يزال يتشكل ويكبر.

وللإنسان أن يتعجب من تميُّز الأرض في داخل المجموعة الشمسية بتلك

رفع المسهم

الظروف التي جعلتها صالحةً لظهور الحياة واحتضانها، فلا بدَّ من عوامل معينة أدت إلى ذلك، ولا يعرفها أحدٌ، وإن كانَ علم الجيولوجيا يحاول دراسة تاريخ الأرض، ويجب أن تستمر الدراسة لمعرفة تلك الأسباب الخاصة التي ستبين لنا حقيقة الأطوار التي تشكل فيها كوكبنا إلى أن ظهرت عليه الحياة وازدهرت وتنوعت على نحو ما نرى.

ونحب أن نشير هنا إلى أن لفظ «السماء» يطلق بوجه عام على النظام الكوني الذي فوقنا، القريب منه والبعيد، والعلم قد أثبت بما لا يدع مجالا للشك أن الكون العلوي البعيد لا يزال يتشكل، وكذلك نحب أن نشير إلى قوله تعالى في القرآن ﴿وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا﴾ (فصلت/١٢)، فهو ينبِّه إلى كل العوامل والقوانين التي تَنْتَظِمْ بها كلُّ سماء بما فيها ومن فيها، ولفظ «أَوْحَى»، بما يدل عليه من خفاء الفعل، يشير إلى الأحوال الداخلية في كل سماء.

والآن، فلنحاول أن نفهم بعض الآيات التي تكلمت عن السماء من بعض الوجوه، ونضع في الاعتبار ما تشير اليه الآيات من دلالة على قوانين عامة تحكم النظام السماوي في جملته.

في القرآن الكريم آيات كثيرة تؤكد أن الله تعالى ﴿رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ﴾ (مثلاً الرعد/٢)، والسموات المقصودة ليست هي الفضاء اللازوردي الذي نراه، لأنه ليس جسماً يمكن أن يُرْفع أو يُخْفَض، والعِلم القديم والعلم الحديث قد حاول أن يفسر لنا هذا اللون تفسيراً علمياً، وإنما المقصود بالسماء بوجه عام هو تلك الأجرام الضخمة التي نراها فوقنا، ثم إن قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ﴾ (الرحمن/٧)، يمكن أن يشير إلى توازن تلك الأجرام بحسب قانون يجعل كلاً منها في موقعه بحسب كتلته بالنسبة لغيره، وإلا فأي ميزان يكون مقصوداً إذا وجدناه في القرآن مقروناً بالأجرام السماوية،

رفع المسهم

فلا بدّ أن يكون هناك سرٌّ، أي قانون عظيم، يستحق أن يُقْسِمَ الله به في القرآن بقوله: ﴿ فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ۝ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴾ والله تعالى يقسم بذلك القانون على أمرٍ عظيم، وهو قوله ﴿ إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ فِى كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ (الواقعة/ ٧٥ ـ ٧٨)، فما أعظم شأنَ المُقْسَمِ به، وأعظم شأنَ المُقْسَمِ لأجله.

وبعض المفسرين القدماء فَهِمَ من «مَواقِع النجوم» مساقطَها، وخصوصاً مغاربَها أو انكدارَها وانتثارَها يوم تأتي ساعة القيامة، لكن خطر للبعض أن المقصودَ هو «مَواقِع نجوم القرآن ومعانيهاوأحكامها في قلوب الملائكة ورسل الله وعباده الصالحين»، لكن ذلك كله بعيد عن دلالة الألفاظ التي تتكلم عن النجوم التي في السماء ويهتدي بها الناس في المعرفة بالأزمان والجهات، كما في آيات أخرى (الأنعام/٩٧، النحل/١٦)، ولذلك فهمَ البعض مثل الرازي والبيضاوي الألفاظَ على أنها تدل على منازِل النجوم ومواضِعها في السماء، وهذا قريبٌ، لكن المقصودَ من ذلك ليس مجرد مواضع النجوم بل السبب أو القانون الكبير الذي يجعلُ كلَّ نجم في موقعه بالنسبة لغيره، بحيث تكون هناك علاقةُ توازنٍ بين كل الأجرام في السماء التي لا حدودَ لها.

إن وجود الأجرام، كلّ منها في موقعه يحتاج إلى تفسير، وهنا قد يخطر على البال عند المشتغلين بعلم الكون قانون الجاذبية العام الذي بحسبه يأخذ كلُّ جرم موقعَه أو يتحرك حركته بحسب كتلته وبالنسبة لغيره، وهذا فهمٌ اجتهادي، والعلم قد يذكر لنا ـ كما هو حاصلٌ بالفعل ـ أن هناك تفسيراً آخر غير مفهوم الجاذبية، بحسب الدلالة الدقيقة لهذا اللفظ، ويستطيع الإنسان أن يتصور أن لفظ «التوازن» بين الأجرام هو التسمية الأكثر ملاءمةً، وإن كان يجوز أنه نتيجةٌ لقانون الجاذبية العامّ، لكن المهم أن نبحث عن السر في ذلك. ومن المعلوم أن العلمَ قد يفسِّرُ الظاهرةَ الواحدة بتفسيرينْ، كل منهما يشرحها،

رفع المسهم

ويبقى المجال دائما للمزيد من العلم والتفسير، وإذا تغيرت تصوراتُنا للأشياء فهذا يرجع الينا، والوقائع والظاهرات والأحداث تبقى كما هي.

على أن المفسرين القدماء جميعاً فهموا من لفظ «المِيزان» أنه ميزان العدل أو الشريعة التي يتحقق باتباعها العدل بين الناس، وعند البعض أن الميزانَ هو الآلة المادية المعروفة، وحتى لو فهمنا اللفظَ على هذا المعنى المادي المعروف على الأرض، فإن وَزْنَ أي جسم يوزن به جسم آخر لتقدير الوزن بين الجسمين فإن ذلك يدخل ضمن قانون التوازن العام الذي يحكم العلاقة بين الجسم الذي نزنه ونزن به وبين الأرض، وهو قانون التوازن الكوني العام. ولا شك أن هذا ما يمكن أن نفهمه من قوله تعالى بعد الكلام عن توازن أجرام السماء: ﴿**ألا تطغوا في الميزان**﴾، أي لا تَطْغَوْا في الوزن على الأرض، وهذا يدل على ارتباط الوزن على الأرض بقانون التوازن السماوي.

والخلاصة أننا لا نزال نحتاج إلى مزيد من العلم لنفهم المعنى الحقيقي للفظ الميزان والحكمة في ربط الميزان في السماء بالميزان على الأرض ضمن قانون عام واحد، وهنا يحسن أن نتفطن إلى آية عامة الدلالة في القرآن، وهي تحتمل تفسيرات عديدة، وتفيدنا هنا، وهي قوله: ﴿ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ﴾ (السجدة/٥).

وإذا كان القرآن في الآية الثالثة من آيات الميزان التي تشير إلى السماء والأرض يأمر الناس بأن يقيموا الوزن بالقسط، فإنه لا مفرَّ - بحسب منطق الآيات - من أن يكون المقصود قانوناً عاماً يشمل كل الأجرام الكونية، ومهما كان الأمر فإنه لا مفرَّ من تفسير مثل هذه الآيات، وإلا بقي جزءٌ كبير من القرآن بغير تفسير مع وضوح الألفاظ واستعمالها في الدلالة المباشرة على الأشياء التي نراها.

رفع المسهم

وبعد ذلك فلننظر إلى آية أخرى في القرآن تتكلم عن السماء، وهي قوله تعالى: ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ (الذاريات/٤٧). وقد تنوعت تفاسير القدماء لقوله تعالى: ﴿لموسعون﴾، فهناك من يقول إن ذلك يدل على «الوُسْع» بضم الواو وسكون السين، أي القدرة على خلق أمثال ما نرى فوقنا من السماء، وهناك من يقول إن اللفظ يدل على التوسيع على العباد في الرزق ونحو ذلك. لكن بعض المفسرين (وهو الفخر الرازي)، فهم أن المقصود هو القدرة على توسيع السماء، بحيث تكون الأرض وما يحيط بها بالنسبة للسماء «كحلقة في فلاة»، ولكن البيضاوي فهم من الآية بصراحة أن الله قادر على أن «يُوَسِّع السماءَ أو يوسِّع ما بينها وبين الأرض». ولكن لم يخطر لأحد أن السماء في حالة اتساع بالفعل، وإذا نحن نظرنا للفظ بصيغته التي هو عليها، وهي اسم الفاعل الذي يدل على الفعل المباشر، وأردنا أن نفهمه، فإن المعنى يصبح واضحاً تماماً، وهو أن الله يوسِّع السماءَ بالفعل وأنها الآن أيضاً في حالة امتداد واتساع، وذلك منذ «انفتاق» ذلك «الرَّتْق» العظيم الذي فتقته القدرة، كما في قوله تعالى متحدياً الكافرين الذين لا يؤمنون بالله أو ينكرون أن يكون القرآن تعليماً إلهياً غير عادي ولا مألوف، وليس من كلام البشر، ولا يخرج من أي علم قديم عند العرب أو عند غيرهم.

﴿أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٠﴾ وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٣١﴾ وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ ﴿٣٢﴾ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٣٣﴾﴾ (الأنبياء/ ٣٠ ـ ٣٣).

وبصرف النظر عما تتضمنه الآيات من أحكام واقعية تتعلق بالحياة أو الجبال ووظيفتها في الأرض وأن السماء «سَقْفٌ محفوظٌ» وأن الأجرامَ كلٌّ منها

رفع المسهم

«يَسْبَحُ في فَلَكِه»، فإن الآية واضحة، ولا يصح أن نذهب في تفسيرها إلى خيالات بعض المفسرين التي لا تتفق مع المعنى الواضح للألفاظ، وهو أنه كان هناك شيءٌ ملتحم ثم فَتَقْتُهُ قدرة الله، ومن تلك التفاسير ما نجده عند القرطبي نقلاً عن ابن عباس والحسَن وغيرهما: «أن السموات والأرض كانتا شيئاً واحداً ملتزقتين، ففصل الله بينهما بالهواء»، أو تفسير كعب الأحبار: «أن السموات والأرض كانت بعضُها على بعض، ثم خَلَق الله رِيحاً توسَّطَها ففَتحها بها، وجعل السموات سَبْعاً والأرضين سبعاً»، وللمفسرين خيالات عجيبة وأوهام في الأرضين السبع وما فيهما، وعن ابن عباس «أن السماءَ كانت رَتْقاً لا تُمطر والأرضَ رَتْقاً لا تُنبت، ففتق الله السماءَ بالمَطر والأرض بالنبات».

أما العلم الكوني الحديث الذي يجب علينا أن نحترمه فإنه على أساس ملاحظات علمية لا شك فيها ولها دلالتها بحسب قوانين الطبيعة، يؤكد أن هذا الكون في حالة امتداد واتساع بالفعل من جميع الجهات بالنسبة للراصد على الأرض.

واستدلال العلماء على ذلك جاء نتيجةً لتحليل أشعة الطيف الآتية من النجوم البعيدة التي في المجرات وما وراءها، فقد لُوحظ أن تلك الأشعة تنزاح إلى الحمرة، ومعنى هذا أنها في حالة ابتعاد، نظراً لخفوت ضوئها، وهذا ما يتفق مع قوانين أخرى طبيعية تثبتها التجربة، مثل قوة الصوت بالنسبة للسامع، فكلما ابتعد مصدرُ الصوت ضعف، وكلما اقترب ازدادت قُوّتُه، وهذا ما قد سجله العلم الطبيعي على يد الفيزيائي النمساوي كريستيان دوبلر Christian Doppler (ت ١٨٥٣) وصار يسمى «Doppler effect»، والمقام لا يتسع لتفصيل ذلك كله، ونكتفي بالإشارة إلى أبحاث الفلكي الأمريكي Edwin Hubble (ت ١٩٥٣) التي نشرها في عام ١٩٢٩، وثبت على أساسها العلمي أن الكون يتسع، ثم جاء الفلكي الأمريكي الروسي الأصل George

رفع المسهم

Gamow (ت ١٩٦٨) الذي فصل النظرية وأصبح القول باتساع الكون أمراً علمياً لا شك فيه.

وبطبيعة الحال يمكن فهم قوله تعالى: ﴿وإنا لموسعون﴾ بالمعنى الذي خطر للبيضاوي، لكن ذلك كان على أساس الإيمان بالدليل القاطع بوجود الله وقدرته التي لا نهاية لها، لكن المسلم مأمور دائماً، خصوصًا في يومنا قبل كل شيء، أن ينظر ﴿ فِي مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ (الأعراف/ ١٨٥، يونس/ ١٠١) وأن يتوصل إلى علم يفسر الظاهرات الكونية في ضوء قوله تعالى: إنه (خلق السموات والأرض وما بينهما بالحق)[1]، ومن معاني قوله «بالحَقّ»، أي بحسب حكمةٍ تتمثل في قوانين تضبط نظام الكون.

وقد كان لا بدَّ للعلم أن يمضي في المزيد من البحث، وهنا سار التفكير على النحو التالي: إذا كان الكون يتسع بقوة وبسرعة، ونحن نلاحظ ذلك أينما كنا على الأرض فإن الاتساع لا بدَّ أن يكون بدأ من نقطة وكان الانطلاق منها بقوة هائلة، وهذا أدى إلى فرض علمي وضعه الفيزيائي ـ الفلكي البلجيكي George Le Maitre (ت ١٩٦٦م)، ويتلخص في أنه كان هناك شيء بمثابة «ذَرَّة واحدة أصلية» وباصطلاحنا الإسلامي «جوهر فرد أصلي» Primoval Atom فانفجر بكل قوة، وهذا ما يسمى Big Bang أي «الانفجار الضخم» الذي صحبته أحداثٌ كونية يصعب على العقل أن يتخيلها من حرارة وسرعة لا تُتصور انطلقت من شيء بدأ منه تشكل هذا الكون العظيم في عشرات الآلاف من ملايين السنين.

ونحن لا نسلم بهذا الفرض بسهولة، ونحن لا نعرف كما لا يعرف

---

(١) ليس هذا نص آية، بل هو ما تقرره آيات كثيرة (مثل الحجر/ ٨٥، الروم/ ٨)، (الأحقاف/ ٣).

رفع المسهم

صاحب الفرض طبيعة ذلك الشيء الذي انفجر، لكننا نشاهد نتيجة انفتاق الرتق الذي يحدثنا عنه القرآن.

ومهما كان الأمر فإنه لا يصح أن يتصور أحدٌ اليومَ أن الأرض مثلا خُلِقت على هذه الصورة التي نراها عليها، لأن القرآن نفسه (فصلت/٩ - ١٠)، يقول بكل وضوح إنها تشكلت على صورة أولية في «يومين» أي مرحلتين من المراحل الطويلة الست التي تشكّل فيها الكون كله، ثم تشكلت في يومينْ آخرين لتكون على النحو المناسب لتوازنها في حركتها بظهور الجبال فوقها، مما يدل على أنها كانت متحركة، وهذا ما تدل عليه آيات أخرى (مثلاً، الأنبياء/٣١)، وأصبحت على الحال والإمكانيات الملائمة لما سيظهر عليها من أحياء تحتاج إلى غذاء: ﴿**وَقَدَّرَ فيها أَقْوَاتَها**﴾.

وإن ذكر لفظ «الأيْد» في الآية الكريمة، وهو القوة، يشير من جهة الى القوة التي نشأ عنها النظام الكوني ومن جهة أخرى إلى تماسك بنائه وثبات تلك القوة إلى «الأجل المسمى» لتبدل النظام كله، وهو ما نص عليه القرآن بصراحة (إبراهيم/٤٨)، الأنبياء/١٠٤). ليبدأ بعد ذلك خلقٌ جديد، ﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ﴾ (الأنبياء/١٠٤).

ويحاول العلماء بأنواع من الاستدلال المبني على ملاحظة الواقع أن يتصوروا نهاية الكون بالمقارنة مع ما قد اكتشفه العلم من تاريخ تشكله وأحوال هذا التشكل، والعلم قد انتهى إلى أن هذا الكون نظام بديع مخلوق، له بداية منذ زمان سحيق، وله نهاية أيضاً، بعد أن يعيش طويلاً، ويتصورون أنه ستصحبه ظاهرات كونية مروعّة كالتي صاحبت نشأته وهي تشبه ما يتحدث عنه القرآن، هذا وكلام العلماء خيال بالقياس على ماتخيلوه لنشأة الكون، أما كلام القرآن فهو أمور ستقع كما تحدث عنها، ولا يعلم أحدٌ إلى متى سيبقى هذا العالم، لأنه كما بدأ على نحو لا نعلمه فكذلك ستكون نهايته.

رفع المسهم

وأخيراً لا يصح أن يتصور أحد أن السماء خالية وأنها ليست إلا أجراماً تسير بحسب قوانين طبيعية حتمية، والقرآن يشير إلى أن السماء مسكونة، وفيها كائناتٌ يصفها بأنها «دوابّ»، ومهما كان مفهوم لفظ «دابةّ» الذي نجده في قول القرآن:

﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍ ...﴾ (الشورى/٢٩).

﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن دَآبَّةٍ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾. (النحل/٤٩).

ومفهوم «الدابة» هو كل شيء يدب أي له كتلة مهما كانت صغيرة، وله حركته، وقد ذهب بعض مفسري القرآن المتفلسفين إلى أن السجودَ لله أو التسبيح له لا يشترط فيه وجود «البنية» كما نتصورها في عالمنا الصغير الذي نعيش فيه.

والآن، فإن العلماء يتكلمون عما سَمّوه «سلوكَ الكون»، وهذا هو تعبيرهم عن أنه يمتد ويتسع، أما من وجهة النظر الاسلامية فإن هذا الكون مخلوقٌ «بالحقِّ» وله أصلُه وقوانينُه ومصيرُه، لكنه يدل بوجوده ونظامه وإحكامه على وجود صانعه، وإذا كان القرآنُ يقول إن كلَّ شيءٍ في الكون يسجد لله ويسبح بحمده فإن هذا هو سلوكه بحسب القرآن.

رفع المسهم

رسالة الإنسان ومعنى حياته في الأرض

الآراء في الإنسان لا حصرَ لها، لكننا نصرف النظر هنا عن آراء مفكرين حطُّوا من قدْر الإنسان أو لم يروا فيه إلا الجانب السلبي، ومنهم شعراء (أبو العلاء المَعرِّي) أو فلاسفة (الفيلسوف الإنجليزي Thomas liobbes) أو (الألماني Nietzsche)، ونشير مجرد إشارة موجزة إلى آراء فلاسفة قدماء عدّوا الإنسان غريبا عن هذا العالم (أفلاطون) أو حيواناً يتميز بالتفكير (أرسطو)، كما نشير إلى آراء عديدة لمفكرين رأوا جوانب إيجابية في طبيعة الإنسان، مثل بعض الشعراء والمفكرين الإيطاليين في عصر النهضة أو تفاءلوا بوجوده ورأوا فيه جوانب رفيعة (الشعراء الألمان: Goethe & Schiller).

لكن لا بدّ أن نذكر من تصوروه كائناً طبيعيا، ليس له أصل علوي، ولا يمكن أن نفهمه إلا كجزء من الطبيعة (Paracelsus وهو أحد فلاسفة عصر النهضة الأوروبية) أو تصوروه ذروَة التطور في عالم الحيوان (البيولوجي الإنجليزي Darwin ومن تابعه).

ولا بدّ أن نقول إن كلَّ هذه الآراء وكثيراً غيرها لا تُصوِّر إلا جوانبَ في الطبيعة الإنسانية، ولا توجد نظرةٌ متكاملة للإنسان إلا في الأديان المنزلة، لأنها بوجه عام بَيَّنت أصلَ الإنسان ونشأتَه وحقيقتَه وطبيعتَه ومكانَه في الكون ومعنى حياته على الأرض ومصيره بعدها، وأنه، خصوصاً، خَلْقٌ أصيل غيرُ مشتق من مخلوقات أخرى كما يزعم أصحاب نظرية التطور.

رفع المسهم

لكن الأديان، وإن اتفقت في أمور أساسية منها تميُّز الإنسان إلا أنها اختلفت في التفاصيل، ونحن، من غير أن ندخل في بحث آراء أهل الديانات الأخرى، نحب أن نشير فقط إلى أن الإنسان، وإن كان بحسب التراث اليهودي الذي أخذت به المسيحية قد خُلِق «على صورةِ الربّ» إلا أنه لا يبدو من نصوص التوراة أن ظهورَه على الأرض خطةٌ إلهية مرسومة لحكمة، بل جاء ذلك بسبب معصية، لأجلها طُرد من الجنة إلى الأرض ليكفِّرَ عن خطيئته... (سفر التكوين، إصحاح ٣، ٦).

أما في القرآن فالأمر يختلف إلى حدٍّ كبير، ومن وجوه أساسية، فعلى حين نجد في التراث الديني السابق قصةَ الإنسان يحكيها التراث، نجد في القرآن أن الله نفسه هو الذي يتكلم عن الإنسان ويخاطبُه بصفةٍ مستمرة. ثم إننا نجد في القرآن كلاماً كثيراً حول الإنسان، وهو كلام متكاملٌ من كل الوجوه، ففيه خلْقُ الإنسان وحقيقتُه وما فيه من نفحة إلهية (مثلاً الحجر/٢٩)، ومكانه في هذا الكون وتسخير كل ما فيه بسمواته وأرضه لمصالح حياته (مثلاً لقمان/٢٠، الجاثية/١٣).

والقرآن يتكلم عن الإنسان في فترة لم يكن فيها ﴿ شَيْـًٔا مَّذْكُورًا ﴾ (الإنسان/١)، ليس له شأن يذكر، ولا أحداث في حياته، ويتكلم عنه بعد ذلك من حيث خلْقُه وما يصير إليه أمرُه من حمل المهام الكبرى التي أُلقيت على كاهله، فيتكلم عنه في حياته على الأرض: في إيمانه وكفره، وقوّته وضعفه، وأخلاقه وسلوكه مع الله، وغروره وخيلائه، لكنه يتكلم عنه في جوانب جهاده وكفاحه في سبيل رسالته. ويمكن أن نصل من آيات القرآن إلى نظرة كاملة للإنسان من كل وجه. أُلِّفت كتبٌ في هذا الموضوع بالذات.

ويتميز القرآن خصوصاً ببيان أن الإنسان خُلِق ﴿فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ (التين/٤). وهذا يتجلى عند من ينظر في التكوين المتكامل في الإنسان من

رفع المسهم

الناحية العقلية ـ الحسية والناحية النفسية ـ البدنية. وفي القرآن أن الإنسان، من أول أمره وقبل هبوطه إلى الأرض، كان له العقل والقدرة والاختيار والاستعداد للطموح، بحيث يفهم بهذا كله معنى الأمر والنهي والتحذير والتنبيه، لكنه لقلة التجربة ولبراءة نفسه يجوز أن يخدعَه عَدُوٌّ ماكر، وأن ينسى الأمر أو التحذير، بحيث لا يستطيع أن يثبت على حال ثابتة، لكنه يشعر بنتيجة النسيان أو الخطأ، فيتذكر ويندم، ويشعر بالحاجة إلى المغفرة والرحمة، والله، بحسب القرآن، يعلمه ما يقوله ليتوب، فيتوب عليه (البقرة/٣٥ ـ ٣٧، الأعراف/٢٣، طه/١٢٢).

كل هذا وغيره ظاهرٌ في القرآن في مواضع كثيرة، لكن يجب أن نبين حقيقة مجيء الإنسان إلى هذه الأرض، ونحن نجد بعد ذلك في عدة سور، منها مكية، وواحدة مدنية، ونحن لا بدَّ أن نكتفي بذكر بعض الملامح العامة، ففي سورة (طه/١١٥ ـ ١٢٠)، نجد أن إبليس يخدع آدم بأن يوهمه أن الشجرة التي نهاه الله أن يقربَها هي « **شجرة الخلد وملك لا يبلى** »، وهناكان آدم قد نسي التحذير أو النهي.

وفي سورة الاعراف/١١ ـ ٢٤، نجد كيف استطاع إبليس أن يخدع آدم وزوجه معاً، بأن كلَّمهما معاً، وأقسم لهما أنه مخلصٌ في نصيحته، وهنا نجد تهديد إبليس وتوعُّدَه بإغواء آدم. وفي (سورة الاسراء/٦٢ ـ ٦٥، وسورة الحِجر/٢٦ ـ ٤٠، وفي سورة صٓ/٧١ ـ ٨٥)، نجد أيضاً توعد إبليس بإغواء آدم وذريته.

أما في سورة (البقرة/٣٠ ـ ٣٩)، وهي مدنية، فنحن نجد القصة مُجملة والخطة الإلهية كاملة، بحسب ترتيب الأحداث. وفي هذه الآيات، بعد التمهيد في السور السابقة التي تبيِّن خلْقَ الإنسان وطبيعتَه والإشارة إلى شأنه

رفع المسهم

العظيم وعداوة إبليس له، نجد شيئاً جديداً يكشف خصوصاً عن الحكمة من خلْق الإنسان وهي أن يكون بعد تدريبه خليفةً في الأرض.

ومما يلفت النظر، وله حكمة، أن الله تعالى يبلغ خطته للملائكة لا لآدم، لكي يتمّ تدريبَه من غير أن يعلم حقيقةَ ما يُراد منه آخر الأمر، وذلك هو أن يعمر الأرض بإرشاد خالقه وينشىء عليها حضارةَ العلم والإيمان، والحُكم بالحق والعدل، وإفاضة الخير والبِرّ والرحمة.

فعلَّمه الله أولاً، وميَّزه بذلك على الملائكة تمييزاً واضحاً خاصاً بمهمته، وأسجد له الملائكةَ تعظيماً لأمره، فامتنع إبليس مستكبراً ومغروراً بأنه خُلق من عنصر آخر، ثم نجد انخداعَ آدم وتوبتَه وقبولَها ثم الهبوط إلى الأرض تائباً مَهْدِيّاً، لكي يستقرَّ ويتلقى التعليم الإلهي الذي ينظم بمقتضاه حياته في الأرض، وهو تعليمٌ يبين له كلَّ شيء من حقٍّ وباطل أو خير وشر، لينهض برسالته في مقاومة الإغواء من جانب عدوه، فيتبيَّنَ بذلك فضلُه على سائر المخلوقات الأخرى التي ليس لها ما للإنسان من استعدادات متنوعة، ويؤدي رسالته باليقظة والثبات في مجاهدة نفسه والكفاح والمكابدة، في احتمال أعباء الأمانة الإلهية التي عهد الله بها إليه وبمقاومة خداع الدنيا وزُخْرُفِها أيضاً، وكل ذلك بفضل استعداداته واجتهاده بقدرته واختياره في اتّباع الحق وإرادة الخير.

وأُحب الإشارة إلى أن مسألة الشجرة التي تتحدث عنها الأديان المنزلة ليست مسألة رمزية، كما تصور البعض، لأن جملة آيات القرآن تستبعد هذا التصور، فهناك شجرةٌ، لكن من نوع يناسب ذلك العالم الذي هبط منه آدم، ويناسب الطبيعة الأصلية لآدم هناك، وهذا أمرٌ طبيعي، للاختلاف بين ذلك العالم وعالَمنا الذي نعيش فيه، وبحكم هذا الاختلاف يحسن أن نتأنى في الحكم في المسألة.

رفع المسهم

وأيضًا فإن مسألة «معصية آدم»، تحتاج هي الأخرى إلى تأمل. ففي سورة طـٰهـٰ كان النهي عن الاقتراب من الشجرة أشبَه بأمر تَخْيِير لا بأمر تكليف، وهذا ما فهمه بعض المفسرين، ولم يكن مصحوباً بوضع عقوبة، بل بمجرد إشارة إلى ما سيلاقيه الإنسان من «شقاء» ومعاناة إن خدعه الشيطان فأكل من الشجرة واقتضى ذلك خروجَه من الجنة.

ومن العجيب أن ذلك الشقاء من نوع رفيع، وأن العناء من نوع نبيل يحتمله الإنسان في النهوض برسالته السامية، وهي هذه الحضارة العظيمة الفريدة التي أنشأها الإنسان على كوكبه الجميل، بخيرها وشرها، وهي حضارة القدرة والاختيار، والتكليف والمسؤولية، والحساب والجزاء في حياة أخرى تكمل بها حكمةُ الله وعنايتُه بالإنسان في أول أمره وفي نهايته.

ومن جهة أخرى فإن تفسير بعض الآيات الخاصة بخداع إبليس لآدم يدل على أن إبليس خدع آدم في أمر الحكمة من النهي عن الشجرة (الأعراف/ ٢٠) وهناك عبارةٌ أعتقد أنها لا زالت تحتاج إلى مزيد من التأمل، وهي قوله ﴿ فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا ﴾ (البقرة/ ٣٦) أي جعلهما يَزِلّان عن الشجرة، ومعنى هذا أنه أوهمهما أنها شجرة الخُلْد وليست الشجرةَ التي نهاهما الله عنها.

وإذا كان آدم، كما يقول القرآن «**نسي ولم نجد له عزما**» (طه/ ١١٥)، أي أن طبيعته لا تثبت في التصميم على الأمر مع يقظة وعدم غفلة، فماذا نسي آدم؟، هل نسي النهي الإلهي أم الحذر من كيد إبليس أم الصفات والملامح المميِّزة لتلك الشجرة؟ ومهما كان الأمر فإن الأكل لا يدل أبداً على التحدي الواعي للأمر الإلهي، وكل ما في الأمر أن آدم خُدع أو طَمَح إلى شيءٍ لم يحذِّرْهُ الله منه بصراحة، وإنما حذَّره أن يكون من ﴿**الظالمين**﴾، أي الذين يتعدون حدودهم.

رفع المسهم

وفي القرآن أن الإنسانَ «**ظَلُوم**» ، وهو «**ظالمٌ لنفسه**» أحياناً ولغيره أيضاً، وهذا ينشأ من طبيعته المتعددة الجوانب والاتجاهات والعلاقات في الحياة المعقدة على الأرض.

فالأكل من الشجرة لم يكن معصيةً بالمعنى الحقيقي الكامل كما نتصوره، بمعنى الطموح لشيءٍ تصور آدم أنه خيرٌ له أو بمعنى عدم اتباعه لما كان خيراً له وأولى به من تجنب المعاناة، وذلك لو امتثل للتوجيه الإلهي، وإذا كان النهي عن الأكل من الشجرة على سبيل الاختيار والتدريب للمهمة المقبلة، وكان ذلك جزءاً من الخطة لتدريبه وتربيته على يد الخالق، فأين هي المعصية بمعناها الذي فهمه الناس؟ وإذا كان القرآن لا يذكر عبارة «مَعْصِية آدم» ويكتفي بأن يقول ﴿**وَعَصَى آدم رَبَّه فَغَوى**﴾، فإن معنى ذلك بحسب جملة آيات القرآن أن آدم لم يُراعِ راحة نفسه، وأوْجُه ما عند المفسرين، مثل الرازي والبيضاوي، أن آدم خالف أمراً لا يخص أمراً واجباً، بل مندوباً، ومعنى أنه «غوى» أنه ضلَّ عن الرشد وعن مطلوبه، وهو الخُلْد، أما النعي عليه بأنه عصى، مع عدم ارتكابه جريمةً حقيقية، فهو تعظيمٌ للزلَل وزجرٌ بليغ لبني آدم من بعده ليحذروا فتنة الشيطان، وكل ذلك وقع لآدم قبل النبوة وقبل التكاليف بما يجب على الإنسان في الأرض.

ويستلفت النظر قول القرآن: ﴿**فطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة**﴾، فهو دليل على أول شعور إنساني نبيل وعظيم، وهو الحياء، وهو دليل أيضاً على أن الأمر لم يزد على الأكل من الشجرة، فلا يصح، بحسب القرآن، أن يتصور أحدٌ معصيةً بالمعنى المتبادر إلى الذهن من المسألة كلها.

وعند التأمل الكافي في المسألة بدقة نلاحظ أنها كانت إعدادَ آدم لمهمته على الأرض، وأن كل ما في الجنة قد تكرر في الأرض: الإرشاد الإلهي بالشرائع وما فيها من أمر ونهي، والغفلة إلى حد النسيان، والخطأ عن غلبة

رفع المسهم

شهوات الدنيا، والانخداع بزخرفها، والندم والتوبة، وحتى إبليس وكيده. عند ذلك تتبين الحكمة العظيمة من إبراز مرتبة الإنسان في الوجود بما له من استعدادات رائعة ليؤدي في الأرض رسالةً فريدة، فيصل باجتهاده في اتباع الإرشاد الإلهي إلى الفوز بحياة الخلود بعد هذه الحياة.

فليست هناك مأساةٌ إنسانية يمكن التحدث عنها، وأيَن توجد حكمة أعظم وأخفى من الحكمة في خلْق الإنسان وإسناد أعظم رسالة وأكبر أمانة إليه، ليؤديَها؟، إن الخالق العظيم أظهرَ مرتبةَ الإنسان، وهو المخلوق العظيم الذي سخّر الله له ، لكي يؤدي رسالته، ما في السموات والأرض.

رفع المسهم

السُّنَّةُ الإلهية في تغير الدول والحضارات

تدل آيات القرآن في جملتها على أن الإنسان قد جاء إلى الأرض مؤهَّلاً لتدبير أمور الحياة على هذا الكوكب، وهذه هي سياسته الإنسانية، وهو الذي يؤسس الدولَ وينشىء الحضارات ويحملها في نفسه ويصنعها فيما حوله بفكره ويده، وتدل آياتُ القرآن على أنه ما دام الإنسان سليماً في نفسه باتباع الهداية الإلهية التي جاءت بمبادىء يصلح بها حال الفرد وتنتظم بها حياة المجتمع، فإن الراحة والسعادة تتحقق للجميع، وكذلك تبقى الدول وتزدهر الحضارات. أما إذا فسد الإنسان في نفسه، في فكره وسلوكه وبدنه، واختل نظامُ حياته فإنه لا بدَّ أن تسري عليه قوانين السياسة الإلهية التي تأمر بالحق والعدل وسلوك طريق الخير وتحرم الانحراف إلى الظلم والجور والفساد في الذات وفي نظام الحياة.

وإذا كان هذا التغير يتم بحسب النظام الشامل الذي وضعه الله، وفيه إمكان فعل الخير وإمكان فعل الشر، إلّا أن القرآن صريحٌ في أن الإنسان هو الذي ينفذ السياسة الإلهية، وهو الذي قد يستقيم باجتهاده عن طريق الحق وقد يعرض نفسه بالتقصير والهوى إلى أن يحقَّ عليه قانون العدالة الإلهية، تحقيقاً لمبدأ اشتمل عليه القرآن وعبَّر عنه الحديث بعبارة: «بالعَدْلِ قامت السمواتُ والأرض».

رفع المسهم

وتكذيب الرسل والتمرد على ما جاؤوا به من الهداية الإلهية الحكيمة ليس بالأمر المقبول، بعد أن منح الله بني آدم العقل والإرادة والتمييز بين الخير والشر في داخل ضمائرهم وإدراك آثار ذلك في نظام الحياة، وكذلك بعد أن منحهم القدرة على السيطرة على ميولهم ورغباتهم المنحرفة لكي يسيروا إلى ما فيه خيرهم وصلاحُ أمورهم في هذه الدنيا ثم السعادة فيما بعدها.

وقد أكد القرآن أن الحياة الإنسانية على الأرض ليست عَبَثاً، بل هي حكمةٌ إلهية وإرشاد إلهي وتكليفٌ برسالة عظيمة بيّنها الله لهم:

﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ ﴿١١٦﴾ ﴾ (المؤمنون/ ١١٥ - ١١٦).

﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ذَٰلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ ﴿٢٧﴾ أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ ﴾، (ص/ ٢٧ - ٢٨).

ولذلك فإن القرآن يؤكد العقاب الإلهي للمكذِّبين للرسالات الذين يتصرفون في حياتهم بالهوى، ويعبثون بأنفسهم وبأفكارهم على مستويات من العبث، وكثير منهم يفسدون في الأرض وفي نظام الحياة حتى بدأوا يعتدون على وجود الإنسان في عقله وبدنه، وهذا ظاهر من تطور حضارتهم وسلوك الكثيرين منهم.

ولذلك فإن القرآن في كثير من آياته يحضُّ على السير في الأرض واستقراء التاريخ والاعتبار بما جرى للمكذبين وللدول القوية التي انقرضت والحضارات البائدة التي لم تَبْقَ إلاَّ آثارُها المادية، تدعو إلى العظة والاعتبار (الأنعام/ ١١، النحل/ ٣٦): ﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ

رفع المسيهما

رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾ ﴾، (الروم/٩).

﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴾ (هود/١١٧).

وتدل آيات القرآن على مختلف العوامل التي أدّت إلى رفض الهدايات الإلهية، ومنها الكبر (الأعراف/٣٦، إبراهيم/١٥، غافر/٥٦)، والغرور بعلم زائف (غافر/٨٣)، أو «الهوى» الذي هو رمز كل تلك الميول والشهوات التي لا تستند إلى عقل أو إرشاد، لا في حياة الفكر ولا في أسلوب الحياة.

ومن تلك العوامل الترفُ الذي يؤدي إلى الاستغراق في الشهوات والغفلة عن التفكير في المصير وإلى تكذيب الرسل وإلى الجمود على تراث الآباء (مثلا الزخرف/٢٣، سبأ/٣٤)، وينشأ عن الترف مع التكذيب والغفلة الفسوقُ والفجور.

﴿ وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَآ أُتْرِفُوا۟ فِيهِ وَكَانُوا۟ مُجْرِمِينَ ﴾ (هود/١١٦).

وهذا الترف بآفاته التي تصيب البشر في أبدانهم وأنفسهم وعقولهم هو الذي يدمر الدول ويقضي على الأمم وحضاراتها.

ويحسن أن نشير إلى أنه في ضوء آيات الكتاب الحكيم «وضع ابنُ خلدون في مقدمته نظريتَه في عمر الدول والحضارة وآفاتها وبيّن أن الظلم يدمّر العمران وأن ترفَ الحضارة يعجل بانتهائها».

وهذا ما يشير إليه القرآن بقوله: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾ (الرعد/١١).

وكذلك قوله:

﴿ وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ

رفع المسهم

فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا ﴾ (الاسراء/١٦).

والمقصودُ أن الله يأمرهم بما يجب عليهم من العدل والاستقامة على طريق الخير فيحجُبُ الترفُ، ومعه الشهوات، أبصارَ قلوبهم ويشلّ إرادتهم عن فعل الخير فيحقّ عليهم قانون زوال الحضارات.

على أن ترف الحضارة، بعد الإعراض والكفر بنعمة الله، قد تؤدي إلى التراخي والإهمال في المحافظة على الحضارة بالعمل فتتضافر عواملُ الانهيار، كما أشار القرآن إلى ذلك بكلامه عن حضارة سبأ، (سبأ/٢٥ ـ ١٧).

وهذه قاعدة عامةٌ تنطبق على الصالحين إذا فسدوا وعلى المفسدين إذا صلحوا، لأن الحضارة في تغيراتها تتوقف إلى حدٍّ ما على أحوال أصحابها، وهذا بوجه عام-والسياسة الإلهية في تدبير أمور البشر في هذه الدنيا تجري على سنة أشار إليها الله تعالى بقوله في حق الذين يُعْرِضون عن الهداية الإلهية وما ينزل بهم من العقاب الإلهي: ﴿ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٦٢﴾ ﴾ (الأحزاب/٦٢)، وقوله عن الذين أعرضوا عن الهداية الإلهية:

﴿ ٱسْتِكْبَارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَكْرَ ٱلسَّيِّئِ ۚ وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ ۚ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَ ۚ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا ﴾ (فاطر/٤٣).

على أن أكبر ما يهدم الدول ويقضي على حضاراتها هو الظلم الذي يفسد كل شيء، ومنه ظلمُ الإنسان لنفسه بانحرافه عن الحق إلى الفساد بكل أنواعه وإلى الكفر الذي هو بحسب القرآن «ظلمٌ عظيم»، ومن الظلم ما يصيب الأبدان بأمراض لم تكن موجودة بسبب الانحراف عن السلوك الجنسي السليم، ولكن منه خصوصاً ظلم طوائف الشعب بعضها لبعض بسبب

رفع المسهم

الاحتكار الذي يؤدي الى ارتفاع فاحش في الاسعار، وكذلك ظلم الدولة للشعب بما لها من القهر والسلطان النافذ، فتحق عليها سنةُ الله وسياستُه في تأديب الظالمين، فلا تبقى إلا بيوتهم ومساكنهم مهجورة.

يقول القرآن عن المكذبين المتآمرين على الأنبياء من قوم ثمود بعد تدمير حضارتهم: ﴿ فَأَصْبَحُوا۟ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٢٥﴾ ﴾ (الاحقاف/٢٥)، ويقول عن المكذبين من قوم عاد: ﴿ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةًۢ بِمَا ظَلَمُوٓا۟ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ (النمل/٥٢).

لكن سُنة الله في تغيير الدول وزوال الحضارات لا تحيد عن العدل:

﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٠﴾ ﴾ (العنكبوت/٤٠).

وإذا كانت القاعدة هي أن القدرة الإلهية تعاقب القرى الظالمة فتبقى بعض آثارها، من «بِئْرٍ مُعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَشِيدٍ» (الحج/٤٥)، لكن الله قد ينذر القرى الظالمة وَيُمْهِلُها حتى إذا استمرت في ظلمها أخذها بالعقاب الشديد:

﴿ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِىَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا ۖ وَإِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴾ (الحج/٤٨).

﴿ وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴾ (هود/١٠٢).

على أن العقاب الإلهي قد لا يكون بانحلال الحضارة ودولها من داخلها فحسب، بل قد يكون أيضاً بواسطة قوى طبيعية مثل إهلاك قوم عاد ﴿ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴿٦﴾ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا ۖ فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴿٧﴾ فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ ﴿٨﴾ ﴾ (الحاقة/٦ - ٨). وقد يكون العقاب بالغرَق والسَيُول الجارفة (سبأ/١١٦)، أو غير ذلك

رفع المسهم

من الآفات أو بعض الحيوانات الضارة (الأعراف/١٣٣)، لكن من غير ظلم: ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ﴾، (العنكبوت/ ٤٠، آل عمران/ ١١).

لكن العقابَ الإلٰهي قد يكون بتسليط بعض الظالمين على بعض، فيذيق بعضهم بعضاً آلاماً كبيرة وطويلة، كما وقع من الحروب بين الدول التي ظلمت غيرها فسلط الله عليها من يصنع بها ما صنعت بغيرها، وهذا ظاهرٌ في التاريخ الحديث في الدول التي تنافست في ظلم الشعوب ثم تحاربت فيما بينها، وذاق بعضُها بأسَ بعض، وهذا من معاني قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّى بَعْضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ (الأنعام/ ١٢٩).

يظن الكثيرون أن سير التاريخ في يد أفراد من ذوي الطموح أو في يد دول قوية تريد أن تفرض حكمها على الأمم بالبغي والعُدوان، لكن استقراء التاريخ يدل على أنه لا بقاء لفرد مهما كان قوياً ولا لدولة مهما كانت واسعة النطاق. وأن ذلك كله انهار أمام التاريخ ونَفَسِهِ الطويل وأن الأمور والسياسات والمصائب كلها بيد القادر الشاملة والتدبير الإلٰهي.

وقد يكون ما يصيب الأمم ذات الرسالات الإلٰهية التي تريد إحقاق الحق وتحقيق العدل ابتلاءً واختباراً من الله، في معركة الصراع بين الإيمان والكفر، وبين الحق والباطل، والخير والشر في هذه الأرض، لكن يبقى سيرُ التاريخ في يد الله الذي **(إليه يرجع الأمر كله)** (هود/١٢٣).

ومن أصدق ما قيل عن مجرى التاريخ عبارة للمؤرخ الألماني Leopold von Ranke (ت ١٨٨٦م)، بعد طول تأمل وتحليل للأحداث الكبرى بحسب العصور:

« إنَّ كُلَّ حِقْبةٍ من التاريخ تَرْجع الى التدبير الإلٰهي مباشرة».

وإذا كان العربُ أَوَّلَ المخاطَبين بهذا القانون الإلٰهي الذي يحكم مجرى

رفع المسهم

التاريخ، فإن الله ينبِّههم إلى أن يَسِيروا في الأرض ليَرَوْا عاقبة المكذبين، ويقول في الآثار الباقية لمن دَمَّرهم سوءُ عملهم، وهم قومُ لوط: ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِاللَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ (الصافات/١٣٧، ١٣٨).

ولله في تدبير أمور البشر حكمةٌ، ولها أسرارٌ لا يدركها البشر، وإن كانوا يرون عواقبَها، والله أعلم.

رفع المسهم

الحق والخير والجمال
في القرآن الكريم

تمهيد:

الحق والخير والجمال، قيم إنسانية سامية، دار حولها الفكر البشري في الدين والفلسفة وفي العلم أيضا. وكل واحدة منها تناسب جانبا جوهريا في الطبيعة البشرية، كما أنه أصبح من حيث المنهج ومجال البحث موضوعا لعلم وفلسفة. فالحق هو هدف العقل في بحثه عن العلم والمعرفة على مناهج التفكير الصحيح (المنطق ومناهج البحث في العلوم)، والخير هو الرمز لإرادة السمو في السلوك الإنساني (علم الأخلاق والفلسفة الخلقية)، والخير وإن كان أمرا يتصوره الفكر إلا أن في الإنسان حاسة خاصة تشعر بقيمته، وأما الجمال فهو أمر تدركه النفس وتبتهج به من غير تحليل عقلي ولا تعليل أكثر من أن الجمال هو الجمال وأن إدراكه لذة وسعادة نفسية.

وهذه القيم ارتبط بعضها ببعض في تاريخ الفكر الديني والفلسفي، وبعضها صار يوصف ببعض، فالحق خير وجميل، والجمال حق وخير، وقد أدى البحث في هذه القيم إلى تجاوز الواقع المحسوس والارتفاع إلى آفاق أعلى تلتقي كلها في المصدر العظيم للوجود بكل ما فيه وكل صفات ما فيه، لأنها كلها من صفاته كما سنرى.

الحق:

كانت للحق معانيه عند العرب قبل الإسلام، وقد ذكرنا ذلك في كلامنا

رفع المسهم

عن أثر القرآن في الحضارة الإنسانية، وكان الغالب على مفهوم الحق هو الطابع العملي، لأن العرب قبل الإسلام لم يكونوا أهل أبحاث نظرية أو فلسفية، وإنما كان عندهم إدراك طبيعي للقيم التي أحسوا بها وفرضتها عليهم ظروف الحياة، فلما أنزل الله القرآن جاءت فيه مفهومات جديدة للحق من حيث نوع المفهومات ودرجاتها، وهذا كما أنه لم يقتصر على الحق فإنه شمل الخير والجمال أيضا.

والمتأمل في القرآن، يرى أن آياته كلها تدور حول الحق بكل جوانبه وفي كل مجالاته. ونحب أن نشير أولا إلى أن كل ما جاء به الرسل والانبياء فهو «حق» مثلا (البقرة/٢١٣)، ثم انه إذا كان الله تعالى يقول في القرآن: ﴿وَبِٱلْحَقِّ أَنزَلْنَٰهُ وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَ﴾ (الإسراء/١٠٥) وانظر المائدة/٤٨، فإنه يشير أيضا إلى أن «الحق» الذي جاء به القرآن قد اشتمل على كل ما سبقه من حق، سواء في القضايا الكبرى في أمور الاعتقاد والإيمان، أو في أحكام الشريعة وتدبير أمور الحياة، أو فيما حكاه من قصص الرسل والأنبياء، ويشمل خصوصا العلم بهذا الكون من جميع الوجوه، وذلك في أحكام كلية تشمل كل ما فيه من أشياء وظاهرات، لأن دراسة هذا الكون هي السبيل إلى الاستدلال على وجود الله.

والحق أن القرآن قد اشتمل على كل حق يعني الإنسان ويخطر لفكره أو يحتاج إلى معرفته: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾، (النحل/٨٩)، ولما كان القرآن قد بيّن ما جاء به بالأدلة والبراهين على صدقه وصدق ما فيه، فإن الله يخاطب رسوله بقوله: ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ ۝٧٩﴾، (النمل/٧٩).

ثم إنه إذا كان الله وحده هو الذي له «**دعوة الحق**»، (الرعد/١٤)، فهو وحده الذي يبين الحق، و«**يقول الحق**» (الأحزاب/٤)، وهو الذي «**يقضي بالحق**» (غافر/٢٠).

رفع المسهم

ومن يريد أن يدرس «الحق» في القرآن، أو يدرس الخير، أو غير ذلك من مفهومات عامة، فإن عليه أن يستقري آيات الكتاب الحكيم، ويتتبع المفهوم في أنواع السياق، وعند ذلك تتبين له الوجوه العديدة لما في القرآن من مفهومات. ونحن نحب أن نكتفي بإشارات موجزة لبعض ما يدلّ عليه مفهوم «الحق»، ومن ذلك:

الحق النظري:

الحق في مجال البحث النظري، أعني البحث العقلي في مسائل العلم والمعرفة، هو «العلم» بمعناه الصحيح، وهو يشمل كل شيء، وأعلاه العلم بوجود الله تعالى، وهو «الحق الأول» الذي هو علة كل حق، أعني مصدر وجود الأشياء كلها، كما عبر أول فلاسفة الإسلام (الكندي) متبعا ألفاظ القرآن. وإذا كان القرآن يقول مشيرا الى الذين اتخذوا من دون الله آلهة: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ﴾ (لقمان/ ٣٠)، فإن «الحق» هنا هو الله تعالى، وهو ﴿ٱلْحَقُّ ٱلْمُبِينُ﴾ (النور/ ٢٥)، أي الثابت بذاته الذي دلّ العقول على ألوهيته وقدرته وحكمته بهذا الصنع العظيم الذي نراه، وعلى هذا فإن من أسمائه تعالى: «الحق»، وعندما يذكر المسلمون هذا الاسم يضيفون إليه، فيقولون: «الحق تبارك وتعالى»، ثم لما تطور الفكر بعد ذلك، وظهر البحث في الوجود من حيث هو وجود، وفي أقسامه، ظهرت تسمية «الوجود الحق» أو «واجب الوجود بذاته»، وهذا ما نجده عند مفكري الإسلام من فلاسفة وعلماء صوفية وجملة علماء الدين، وذلك في مقابل هذا الوجود الحادث الزائل الذي نراه هو وغيره مما لا وجود له في الحقيقة إلا بالاستناد إلى «الوجود الحق».

وفي القرآن أن «الحق» هو نفاذ حكم الله وأمره وإرادته، وهذا هو معنى

رفع المسهم

قوله مثلا: ﴿كَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾ (يونس/٣٣)، أو قوله عن تدمير قرية الفاسقين: ﴿فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا﴾ (الإسراء/١٦)، ومن ذلك دقائق في التعبير القرآني مثل، نسبة نفاذ الأمر الإلهي إلى المخلوقات في نحو قوله تعالى: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ﴾ (الانشقاق/١ ـ ٢)، أي أن الأمر الإلهي حق عليها ونفذ.

على أن لفظ «الحق» يشير أيضا إلى العلم الصحيح بوجه عام، ومن ذلك ما تدل عليه آيات القرآن التي هي ﴿ءَايَٰتُۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ﴾ (العنكبوت(٤٩)، وهم الذين بفضل ما عندهم من «العلم» يعلمون أن ما جاء في القرآن هو «الحق» (الأنعام/١١٤).

وكل من «الحق» و«العلم» في القرآن يقابل الظن والحكم بالهوى: ﴿إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا﴾ (يونس/٣٦، والنجم/٢٨)، ﴿وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٢٤﴾﴾ (الجاثية/٢٤)، ولذلك نجد أن إحدى الكلمتين تأتي في محل الأخرى (مثلا، آل عمران/٦١، يونس/٩٤). وهذا يدل في اصطلاح القرآن على أن ما ليس حقا فهو ليس علما وأن ما هو «علم» فهو «حق»، وما عدا ذلك فهو ظن أو خطأ بل جهل.

ومن معاني «الحق» في القرآن أنه القاعدة العامة أو القانون الشامل الذي بحسبه أظهر الله تعالى نظام المخلوقات كلها، وهذا ما نفهمه من آيات كثيرة في القرآن تؤكد أن الله خلق كل شيء «بالحق»، مثل: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿٣٨﴾ مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (الدخان/٣٨ ـ ٣٩، الروم/٨). ونحن عندما نستقري قوله ﴿بالحق﴾ في آيات القرآن نجد أنه يدل على الحكمة والغاية والقانون المطّرد الذي يمكن أن نستخلصه من الطبيعة التي سخرها الله لنا، فنعلم طبائع الأشياء ونستخدمها في مصالح حياتنا، ونعرف مجرى قوانينها ونرتب أمورنا بحسبها، من ذلك قوله

رفع المسهم

تعالى: ﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ﴾ (الجاثية/١٣)، وقوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥﴾ ﴾ (مثلا: يونس/٥).

وقد نجد مفهوم «الحق» وصفا لأمور منها مثلا وصفه لقيام «الساعة»، ﴿يَوْمَ يَسْمَعُونَ ٱلصَّيْحَةَ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُرُوجِ ﴿٤٢﴾﴾ (ق/٤٢)، ولذلك فإن الساعة تسمى ﴿الحاقة﴾، بمعنى أنها ستتحقق وأنها ﴿ءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا﴾ (الحج/٧). وفيها ستحقّ الحقوق، ونجد اللفظ وصفا لتحقق الصفة أو الحال على الوجه الأكمل، ومن ذلك قوله تعالى في وصف عباده الذين تهتز مشاعرهم إذا سمعوا ذكر الله أو سمعوا آياته: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾ ﴾ (الأنفال/٢ - ٤).

الحق العملي:

أما من الناحية العملية فإن مفهوم «الحق» هو: «الحكم بالعدل»، أي بحسب القانون، وهذا ما يدل عليه قوله تعالى: ﴿ يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِي ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ (ص/٢٦).

حقوق متبادلة:

لما كان الله تعالى قد منح عباده العقل والقدرة والاختيار وبيّن لهم رسالتهم في الأرض وأرسل إليهم الرسل والأنبياء فأرشدهم إلى ما يريده منهم

رفع المسهم

فإن له حقوقا عليهم، وهي أن يتبعوا ما جاءهم من عنده. وأول ذلك أن يتفكروا في صنعه فيعرفوه ويعبدوه، ولا يشركوا به شيئا، ويجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل إعلاء كلمته، وأن يؤدوا كل ما فرضه عليهم، ويتخلقوا بكل فضائل الدين وآدابه. وقد أحسن أحد علماء الإسلام بأن عبّر عن ذلك بأنه «الرعاية لحقوق الله»، وهذا عنوان كتاب للصوفي الأخلاقي «الحارث بن أسد المحاسبي» (ت ٢٤٣ ـ ٨٥٧م)، وفي مقابل ذلك فإن للمؤمنين المجاهدين حقوقا على الله، وهو سبحانه وتعالى قد بينها بنفسه في أكثر من آية وأنه سيفي بما وعدهم به من حسن الجزاء والتأييد في أداء رسالتهم. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١١﴾﴾ (التوبة/١١١)، والله يقول ايضا: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا..﴾ (غافر/٥١)، ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٢١﴾﴾ (المجادلة/٢١)، ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾﴾ (الروم/٤٧).

حقوق يؤديها المتقون:

وفي القرآن حقوق نحو الغير، ومنها ما هو بوجه عام ملزم في معاملة المؤمنين بعضهم لبعض، وهو العدل والإحسان، ومنها ما هو مفروض ولا بد من الوفاء به مثل حقوق الميراث، ومنها بعد ذلك ما يكون نوعا من الأخلاق التي تدخل تحت مفهوم البر وهو التوسع في الخير، وهي حقوق كثيرة يؤديها أهل التقوى أو «المحسنون»، ومن ذلك حقوق لذوي القربى والمساكين والسائلين والمحرومين، وهذا فيما عدا الحقوق المفروضة، ومهما أكثر الإنسان من أنواع البر فإنه لا يكون مسرفا، ومن أرفع صفات المؤمنين الإيثار حتى مع احتياج الإنسان لما يقدمه لغيره، وآيات القرآن في ذلك كثيرة: (آية البر التي فصّلت

رفع المسهم

أنواعه، البقرة/١٧٧، الإسراء/٢٦، المعارج/٢٤ ـ ٢٥)، وسيأتي مزيد من الكلام في ذلك عند كلامنا عن الجمال فيما يلي.

الحق قوة غالبة:

والقرآن يؤكد ما للحق من قوة قاهرة، ويبعث الثقة في قلوب أهل الحق، وذلك بقوله لرسوله: ﴿وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ (الإسراء/٨١)، والقرآن يتحدث عن قوة الحق وأنه شبيه بالقذائف القوية التي تدمر ما يقف أمامها من أباطيل، يقول الله ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّى يَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾ (سبأ/٤٨)، ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ...﴾ (الانبياء/١٨).

وإذا كان القرآن يقدم الأدلة العقلية على ما جاء به من الحق، فإنه يضرب أمثالا كثيرة لبيان شأن الحق وثباته ومنفعته في مقابل ضعف الباطل وضرره، ونحب أن نلاحظ أن الأمثال القرآنية في هذا الباب ليست مجرد أمثال أو تشبيهات بل هي لغة يدركها العقل ويفهمها العلماء، ومن أروع الأمثلة ما نجده في سورة الرعد/١٧، في المقارنة بين الحق والباطل، ونحن نهيب بالقارىء أن يقرأ ذلك، ويطيل التفكير والتحليل لما اشتملت عليه تلك الآية، لأن أمثال القرآن تحتاج إلى التفكير، ولذلك ينبهنا القرآن إلى التأمل في دلالاتها: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (الحشر/٢١)، ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ﴾ (العنكبوت/٤٣).

ونظراً لكل هذه المعاني التي نجدها في القرآن وكلامه عن «الحق» فإن علماء الإسلام وفلاسفته، بحكم تعلمهم وحفظهم لكتاب الله، من أول أمرهم، قد انطبعت عقولهم بمفهوم «الحق»، فجعلوا اقتناءه غاية لهم، ورأوا فيه «كمال النوع الإنساني»، كما عبر الكندي، ووجدوا في معرفة الحق واقتناء

رفع المسهم

العلم لذة روحانية عالية، والشواهد على ذلك كثيرة، ونكتفي بعبارات قصيرة لبعض كبار علماء الإسلام مثل:

ـ قول أبي الريحان البيروني (ت ٤٤٠هـ ـ ١٠٤٨م): «**إن الإنسان يُحِسُّ للصدقِ ومعرفة الحقيقة لذةً إلى جانب الاعتقاد بها**» (كتاب مقولات الهند).

ـ وقول أبي الحسن الماوردي (ت ٤٥٠ ـ ١٠٥٨م) «**العلمُ عِوَضٌ من كل لذة ومُغْنٍ عن كل شهوة**» (أدب الدنيا والدين).

الخيـــر:

والخير أيضا من المفهومات العامة، وله في القرآن معانيه العديدة، بحسب درجات الخير، ومن ذلك خيرات هذه الدنيا وما فيها من أنواع المتاع، وهي الخيرات الزائلة. وهي وإن كانت نعما حقيقية من الله تعالى تستحق الشكر العظيم، إلا أن القرآن يريد منا أن نسيطر عليها، بحيث لا تستولي على قلوبنا، ونحب أن نلاحظ أن الله تعالى في القرآن لا يسمي أنواع المتاع الدنيوي المادي بأنها «خيرات» بل «شهوات». حتى ما يتعلق منها بالعواطف الإنسانية، ودليل ذلك قوله تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ﴾ (آل عمران/١٤).

فها نحن أولاً نرى أنواعاً من السعادة الحقيقية للإنسان، وهي حياة الأسرة وما فيها من المحبة والأبناء والأموال... الخ، لكن ذلك كله «**متاع الحياة الدنيا**» و«**متاع الدنيا قليل**» (النساء/٧٧)، وذلك بالمقارنة بنعيم الحياة الأبدية. (آل عمران/١٥).

والإنسان يقف، بحسب القرآن موقف الاختيار، فهو إما أن يختار

رفع المسهم

«الحياة الدنيا وزينتها»، وإما أن يفضل الخيرات الحقيقية في الآخرة، وهو في الحالين يستوفي ما تتجه إليه إرادته (هود/١٥، الإسراء/١٨ ـ ٢١، الأحزاب/٢٨ ـ ٢٩). لكن بما أن الله أنعم على الإنسان بهذه الحياة الدنيا فإنه يريد منه أن يتمتع بزينتها وطيباتها دون حرج، وكل ما عليه هو أن يشكر الله ويعمل صالحا وأن يتجنب ما يؤاخذ عليه عند الحساب (البقرة/١٧٢، الأعراف/٣٢، المؤمنون/٥١).

لكن على الإنسان العاقل أن يفكر ويطمح دائما إلى الحياة التي هي خير وأبقى (الأعلى/١٧)، والسبيل إلى الحياة العليا هو الخير بالمعنى الذي جاء في القرآن، وهو كل ما فرضه الله على الإنسان من العبادات والطاعات والبر. والخير بهذا المعنى يشمل كل فضائل الدين، والفضائل الاجتماعية، ويدخل كله تحت مفهوم «العمل الصالح»، والله تعالى يقرن في القرآن دائما بين الإيمان والعمل الصالح، (البقرة/٦٢، المائدة/٦٩، مريم/٦٠)، كما يدخل تحت مفهوم « **الباقيات الصالحات** » التي هي « **خير عند ربك ثوابا وخير املا** » (الكهف/٤٦)، أي أنها أعظم أجرا وأوثق ما يمكن أن يعلق عليه الإنسان آماله في السعادة الكاملة.

وإذا كانت الخيرات درجات كما تقدم القول، فإن في القرآن مفهوم «أعظم الخيرات كلها»، ونحن ندرك هذا إذا عرفنا أن خيرات هذه الدنيا هي على قدرها وأن خيرات الحياة العليا أعظم بكثير، لكن الخيرات كلها من الله، وهي من مخلوقاته، ومهما كان أمرها فإنها تعود على الإنسان، فهي منفعة ذاتية له، لكن هل الخير الحقيقي هو ما نحبه لنسعد به في أنفسنا؟ أم هناك خير أعظم هو مصدر كل خير كما أنه مصدر كل حق، وهو الخير المطلق الأعظم الذي نعرفه عندما ننظر في هذا العالم فيدلنا على خالق الأشياء كلها، خالق الدنيا والآخرة، الذي له الكمال والجلال والإكرام، وعند ذلك ماذا يكون موقفنا؟ هل يمكننا أن نزعم أن خيرات الحياة الدنيا، وحتى خيرات الآخرة،

رفع المسهم

هي خيرات مطلقة في ذاتها؟ وبلا قيد أو شرط؟ أم هي خيرات بالنسبة إلينا، وبالنسبة فيما بينها، لكن خالقها هو الخير الحق، ولذلك فإن أولئك المصريين الذين آمنوا بموسى بعد أن أظهر الآيات الدالة على رسالته وبعد تهديد فرعون لهم قالوا له: ﴿لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ ﴿٧٢﴾ إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾ (طه/٧٢ - ٧٣).

والناس فيما يتجهون إليه طوائف: منهم من يجعل همه حب المال والجاه، ونعيم الدنيا، وهؤلاء غافلون عن الخير الحقيقي، ومنهم أذكياء يوازنون بين نعيم الدنيا وبين النعيم المنتظر بعدها، فيختارون ما هو أحسن وأعظم، لكن هناك طائفة أعلى، وهم الذين ينظرون إلى الدنيا والآخرة من جهة، وإلى خالق الدنيا والآخرة من جهة أخرى، فلا تتعلق قلوبهم بشيء من ذلك، إلا لأنه من الله، وهم يذكرونه في كل أحوالهم، ويرجون لقاءه ورضوانه، وخصوصا مشاهدة ذاته العلية، وهذه هي: «رؤية الله» التي لا يمكن أن نتصورها بخيالنا ولا حتى بعقلنا لأنها انكشاف معرفة عليا تفوق تصورات العقل بما لا نهاية له، كما أن تصورات العقل تفوق إدراكات الحواس من حيث النوع والدرجة، والمؤمنون جميعا في الديانات المنزّلة ينتظرون السعادة العليا بتلك المشاهدة، وهي الخير الأعظم الذي يجب أن يتجه إليه الإنسان فيما يبغيه من سعادة، كما أن الله تعالى هو الحق وله الجمال الأعلى، كما سنرى.

والقاعدة العامة بالنسبة لسلوك المؤمن نحو ما يتجه إليه هو قوله تعالى: ﴿وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ . . .﴾ (البقرة/١٤٨)، ومعنى هذه المبادرة هو أن نقصد ما هو أحسن وأفضل، ولا ننسى أن لفظ «الخير» يدل على ما هو خير وفي الوقت نفسه فهو صفة تدل على ما هو أفضل لكي يختاره الإنسان الذي يطمح إلى الكمال وإلى التكمل بما هو أعلى وأفضل.

رفع المسهم

معرفة الخير والشر:

ويحق للقارىء أن يسأل: كيف يعرف الإنسان ما هو خير وما هو شر بحسب القرآن؟ هنا يحسن أن نلاحظ أن الله تعالى من أول الأمر علم الإنسان وبيّن له رسالته في الأرض وتولاه دائما بهدايته. والقرآن يقول على كل حال: ﴿ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴾ (فاطر/٢٤)، وهذا حكم عام يدخل فيه الرسل والانبياء وكل من أرشد الناس إلى الخير عند عدم وجود الهداية الإلهية.

لكن الآراء كثيرة في تحديد المصدر لمعرفة ما هو خير وما هو شر: بين من يقول: إن واقع الحياة يعلم الإنسان ما ينفعه أو يضره، وما يسعده أو يشقيه. وبين من يقول: إن العقل هو الذي يميز الخير من الشر، أو يقول إن في الإنسان حاسة خلقية Moral Sense يدرك بها ما هو خير ويبعث في نفسه التقدير والاحترام، وما هو شر ترفضه الحاسة وتستنكره ونحو ذلك من الآراء.

أما القرآن فهو يقول بكل وضوح إن الله خلق الإنسان في ﴿ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴾ (التين/٤)، فهو بفطرته يدرك ما هو خير وما هو شر، وهذا ما يدل عليه قوله تعالى: ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا. فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا. قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا. وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴾ (الشمس/٧ ـ ١٠). وهذه الآيات تدل على التمييز الفطري وتحض على فعل الخير وترك الشر.

كما يقول القرآن في سياق ما أنعم الله به على الإنسان من ملكات ﴿ وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ ﴾ (البلد/١٠)، والمقصود هو الطريق الواضح لمعرفة ما هو خير وما هو شر. فإذا كان الإنسان يحتاج إلى معرفة الخير الحقيقي الكامل، ولا سيما ما يتعلق بالقيم الكبرى والأهداف العليا للحياة الإنسانية، فإنه يحتاج إلى الهداية الإلهية، لكن ذلك يأتي دائما متفقا مع الحكمة وسلامة نظام الحياة في الحياة الدنيا والسعادة فيما بعدها.

رفع المسهم

والإنسان بما فيه من استعدادات أخلاقية وعقلية يدرك وجوه الحكمة فيما يأمر الله به وينهى عنه. وهو إذا كان سليم الطبع فإنه بفطرته يؤكد ذلك. ومن هنا نفهم قول الله تعالى في حق أهل البر والخير، أنهم يفعلون ذلك ﴿ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ (البقرة/٢٦٥)، وعلى أساس ما جاء في القرآن فإن مفكري الإسلام متفقون على أن العقل يميز ما هو شر مما هو خير، أما الإلزام والجزاء فهو بحسب ما يبينه الله، لأن ذلك يخرج عن حدود معرفة الإنسان.

الجمـــال:

كما أن الله تعالى أبدع هذا العالم الرائع ونصبه أمام حواسنا وعقولنا وحضّنا على التفكير فيه لكي نستدل على وجوده تعالى من صنعه العظيم فإنه أيضا أسبغ الجمال على كل ما خلق، ﴿ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ﴾، (السجدة/٧)، وهو سبحانه فطر نفوسنا على إدراك الجمال وعلى محبته، ونبهنا إليه، وكل ذلك من آيات التناسق في صنع الله القادر الحكيم.

وفي القرآن الألفاظ التي تشير إلى الملامح التي تسر النفس: «الجمال»، «الحسن»، «البهجة»، «الزينة»، وغير ذلك من ألفاظ تدل على تكامل الجمال مثل مفهوم «التسوية»، فالله تعالى «سوى» كل شيء خلقه، وهذا كما يشمل نظام السماء، فهو يصدق على نظام النفس (النازعات/٢٨، الشمس/٧)، ومعنى التسوية، هو أن الله جعل الشيء متعادلا متناسقا في تكوينه (الأعلى/٢)، ثم «الاتقان» في الصنع (النمل/٨٨)، و«التقويم» بمعنى تكامل التركيب ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ (التين/٤)، ومعنى ذلك أن الله خص الإنسان بنوع من الجمال المتكامل الذي يتمثل في «انتصاب القامة، وحسن الصورة او استجماع خواص الكائنات ونظائر سائر الممكنات» (بيضاوي).

رفع المسهم

ولما كان الله تعالى كاملا وجميلا بالمعنى المطلق، فإن من الطبيعي أن يكون كل ما خلقه جميلا في ذاته، لا بحسب تقديراتنا الذاتية التي لا تدرك كل حقائق الجمال، كما أنها لا تبلغ إلى الإدراك التام لحقائق الأشياء.

ومظاهر الجمال في صنع الله تعالى لا حصر لها. وقبل أن نتكلم عما أشار إليه القرآن من آيات الجمال في هذا الكون لا بد أن نشير أولا إلى ما يميز به القرآن نفسه من أنواع الجمال، في فصاحة ألفاظه وبلاغة عباراته وهذا ما أحسّ به أوائل من سمعوه ومن جاء بعدهم فتحدثوا عما له من «حلاوة» و«طلاوة» و«عذوبة» وتأثير لا يمكن تعليله، حتى وصفوه بأنه «سحر». لكن جمال القرآن لا حصر له: ﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٧﴾ ﴾ (لقمان/٢٧).

ونكتفي بأن نشير من ذلك إلى ما فيه من المعاني التي يدركها «**أولو الألباب**»، لأنها توقظ عقل الإنسان وتحيي قلبه، وتنبه حواسه، وبذلك توجه كل ملكاته إلى ما يسمو بها، وهذا لا يعرفه إلا من كانت له «روح» أو «قلب»، وكان عند قراءته للقرآن حاضر الذهن لكي يشعر بما فيه من آيات وحقائق من «عالم الغيب»، لأن القرآن كما يقول الله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا . . . ﴾ (الشورى/٥٢)، أي من «عالم الأمر» الذي أشار الله تعالى إليه، ولا تلوح حقائقه إلا ﴿ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾ (ق/٣٧).

والقرآن يلفت نظرنا إلى مظاهر الجمال على مستوى هذا الكون في جملته: في الأرض وما عليها من الجمال المتنوع: ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا ﴾ (الكهف/٧)، وفي السماء وزينتها بما فيها من نجوم وكواكب لا تحصى وتتألق بكل ألوانها الجميلة: ﴿ أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا ﴾ (ق/٦).

رفع المسهم

بعد هذا يلفت القرآن نظرنا إلى جزئيات الجمال، ومن أولها وأبسطها ما يدل عليه قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾ (الحج/٥)، أو قوله تعالى: ﴿... وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ...﴾ (النمل/٦٠). ولنلاحظ ما تشير إليه صيغة لفظ ﴿بهيج﴾، فهي تدل من جهة على صفة ما تنبته الأرض من أنواع الزهور الجميلة، وتشير من جهة أخرى إلى قوة تأثير ذلك الجمال وابتهاج النفس به. وفي مواضع أخرى يقول القرآن: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَمْ أَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ﴾ (الشعراء/٧)، ولفظ ﴿كريم﴾، يدل على شيء يضاف إلى الجمال، وهو المنفعة والفائدة.

وفوق هذا كله جمال الصورة الإنسانية التي يذكرها الله مقرونة إلى إحكام نظام السموات والأرض: ﴿خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾ (التغابن/٣)،وجمال الإنسان لا يقتصر على الجمال الظاهر بكل ألوانه، رغم جاذبيته الشديدة للعين والقلب، ورغم ما يثيره من «فتنة» بل يتجلى أيضا في جمال الشخصية عندما تتحلى بجملة صفات الروحانية والخير والنبل، وفي القرآن إشارة إلى «التجربة الجمالية» التي تفتن وتذهل، كما نقرأ ذلك في سورة سيدنا يوسف عليه السلام، فلم يكن ذلك الجمال مجرد ملامح الحسن الذي تدركه العين، بل كان في إشراق طهارة الروح التي أشار إليه القرآن.

وفي القرآن ذكر الجمال فيما خلق الله من أنواع الحيوان: ﴿وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ۝ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ﴾ (النحل/٥ - ٦)، وإذا كانت الآية تشير إلى الأنعام خصوصا الخيل بكل ما يعجب الإنسان من جمالها وخيلائها مما يدعو إلى تزيينها بكل أنواع الزينة وإلى الاعتزاز بها، فإن فيما خلق الله من أنواع الطير والفراش

رفع المسهم

وحيوانات البحر وغير ذلك جمالا يندرج تحت قوله تعالى: ﴿ أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُۥ ﴾ (السجدة/٧).

وكل ما تقدم يشير إلى جمال المبصرات، ولكن القرآن يشير إلى جمال المسموعات، خصوصا الأصوات الجميلة. وقد فهم المفسرون من قوله تعالى: ﴿ يَزِيدُ فِى ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ ﴾ (فاطر/١)، أن من ذلك حسن الصوت، والله تعالى يعلم ما فطر عليه الإنسان من حب الجمال والقبول من الجميل، ولذلك فإن الرسول عليه الصلاة والسلام يقول: «ما بعث الله نبيا ولا رسولا إلا حسن الوجه، حسن الصوت، حسن النسب».

والقرآن يحدثنا عن جمال الصوت إذا كان في التعبير عن المعاني الدينية، ومن ذلك تسابيح ودعاء سيدنا داود عليه السلام، حيث كانت تشاركه في ذلك الجبال والطير ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ... ﴾(سبأ/١٠).

ولا يصح أن يندهش أحد من أن الجبال والطير كانت تردد مع داود تسابيحه ودعاءه، لأننا لا يصح أن نقيس الأمور دائما بالنسبة إلينا لأن القرآن يبين أن كل شيء يسجد لله ويسبح بحمده، وإن كنا لا نفقه ذلك (الإسراء/٤٤). وفي القرآن أن الجبال تسجد لله كما تسجد سائر الكائنات، كل على طريقته (الحج/١٨)، وأن الطير تصلي وتسبح ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلطَّيْرُ صَٰٓفَّٰتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴾ (النور/٤١)، ولا أجد حرجا إذا قلت أن بين جبال سويسره جبلا اسمه Zermat، يقف وحده شاهقا وقمته منحنية انحناء ظاهرا، والناس يقولون إنه ينحني إجلالا للخالق العظيم.

والجمال لا يقتصر على جمال المحسوسات، فهناك الجمال في الأخلاق، ومن ذلك عبارة «حسن الخلق»، وأن تسمية الأعمال الصالحة بأنها «حسنات»

رفع المسهم

يشير إلى جمالها وإلى جمال النفوس التي وراءها ولا تدركه العيون وإنما تدركه القلوب والبصائر.

والقرآن يذكر لفظ «الإحسان»، وهو مبدأ عام يأمر الله به مقرونا إلى العدل: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ﴾ (النحل/٩٠)، والإحسان يذكر خصوصا في معاملة الوالدين ولا يراد منه مجرد العناية المادية بل كل أنواع البر واللطف وحسن الكلام، وفي القرآن قوله تعالى: ﴿ وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا ﴾ (البقرة/٨٣)، وقوله: ﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا ﴾ (العنكبوت/٨)، والمقصود هو الكلام الحسن والعمل الحسن الذي يبلغ من جماله أن يقال عنه أنه الحسن نفسه.

وإذا كان الجمال يتمثل في الأعمال الصالحة كلها، على مستوى الواجبات الدينية والاجتماعية، فإن على الإنسان أن يحسن إسلامه وعبادته، بحيث يتحقق من استغراقه في مناجاة الله معنى الإحسان في قول الرسول عليه الصلاة والسلام: «الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه».

والقرآن يوصي بالجمال المعنوي في أدائنا لواجباتنا في الأمور الحساسة، وذلك بأن يراعي الإنسان إحساس الغير، ومن ذلك ذكر «السَّرَاح الجميل»، عندما تنحل حياة الأسرة بالانفصال، وهنا يأمر الله الزوج أن يتلطف في إكرام المرأة عند مفارقتها غاية الإكرام بقوله: ﴿ فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴾ (الأحزاب/٤٩).

بل إن الجمال مطلوب حتى في الأحوال النفسية التي يعانيها الإنسان، ومن ذلك مفهوم «الصبر الجميل»، بمعنى الرضا، وعدم اضطراب القلب، والإيمان بحكمة الله فيما يصيب الإنسان، وقد يكون الصبر الجميل على الأذى الذي يلحق الإنسان، وهو هنا بمعنى الصفح وعدم الإصرار على الانتقام، وربما مع الرثاءوالدعاء للغير،والله يقول لرسوله﴿ وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ فَٱصْفَحِ

رفع المسهم

ٱلصَّفۡحَ ٱلۡجَمِيلَ﴾ ﴿الحجر/٨٥﴾، وكل ذلك من صفات الأنبياء والمصلحين، وأصحاب المثل العليا.

ولقد كان ذكر الجمال على تنوعه في القرآن الكريم والتنبيه إلى النظر إليه من أسباب الاهتمام بتجميل الحياة عند المسلمين، والظهور بمظهر الجمال في مختلف الأحوال والمناسبات العامة، سواء في أيام الجمعة عند الذهاب إلى المساجد: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ﴾ (الأعراف/٣١)، أو في أيام الأعياد والمناسبات الدينية.

ثم إن القرآن ينبه إلى أن الله أحلّ الزينة لعباده، وهو يذكر أنها «زينة الله» لأنها منحة منه ومنسوبة إلى صنعه البديع: ﴿قُلۡ مَنۡ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخۡرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزۡقِ قُلۡ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا خَالِصَةٗ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ﴾ (الأعراف/٣٢)، وإذا كان الله تعالى قد أحل أنواع الزينة وكل أنواع المتاع الذي تقدمه الحياة، فإن ذلك كما يتبين من الآية السابقة مشروط بمراعاة المبادىء الأخلاقية، لأن الجمال إنما هو للمتعة السامية وليس للابتذال، ولذلك فإن الله تعالى بعد آية «الزينة» يبين ما حرمه الله، وهو **(الفواحش ما ظهر منها وما بطن)**، ولذلك فإن من الآداب الخاصة بالجمال أن يصونه صاحبه، احتراما لصنع الله ولا يعرضه للانقلاب شرا في الدنيا ووبالا في الآخرة.

والناظر في حضارة الإسلام، يلاحظ أن الجمال من مظاهرها العظيمة، سواء في دقائق الجمال كما يتجلى في الخط العربي أو في أنواع الزخرفة، أو في الجمال على مستوى العمارة الضخمة التي تتجلى روعتها في المساجد الكبرى التي تبدو مناراتها عالية من المكان العالي الذي تقام عليه، ومن ينظر في مساجد الإسلام في كل المدن الكبرى من أعماق آسيا الوسطى والهند إلى إيران والشام ومصر وشمال أفريقيا إلى جامع قرطبة العظيم وخصوصا المساجد الكبرى في

رفع المسهم

استانبول والمدن الكبرى في تركيا، يجد الجمال على مختلف مستوياته في الدقة والعظمة وفي داخل المساجد يجد آيات القرآن بالخط الجميل، وهي ليست مجرد زينة، ثم هي تدل عند من يقرؤها ويتأمل معانيها على ما يشبه الأصول لحياة الإيمان والفكر بل سياسة الدولة الإسلامية، ثم إن بعض المساجد التي أنشئت في عواصم الدول الأوروبية مثل جامع باريس تمثل آية فنية يزورها ويتأملها الأوروبي فيرى وهو في بلاده شاهدا على مظهر من مظاهر الجمال في حضارة الإسلام.

وقد كتب علماء الإسلام في الجمال الذي أبدعه الله، ولهم نظرياتهم وآراؤهم وتغنى شعراؤهم بجمال الطبيعة على الأرض وفي السماء، وتغنوا بجمال الصورة الإنسانية التي أبدعها الله، وأعتقد أنهم في التصوير للحسن في جمال الصورة الإنسانية فاقوا جميع الأمم، كما أنهم في وصفهم لدقائق الجمال، في الطبيعة خصوصا جمال الحياة النباتية، صوروا الجمال ورمزوا له بالرموز الرائعة. ومن أصحاب النظريات في الجمال ابن حزم والغزالي.

وإذا كان الجمال في هذا الكون مظهرا من مظاهر الصنع الإلهي البديع فإن النظر إلى الجمال يذكر المسلم بصانع الجمال، ولذلك فإنه يذكر الله على نحو تلقائي. ومن عبارات العلماء قولهم : إن الجمال الصحيح ، هو ما يستنطق اللسان بالتسبيح.

ولما كان الجمال في المخلوقات ثوبا أسبغه الله عليها فإن الشعراء من الصوفية خصوصا، تغنوا بتعظيم الجمال الإلهي، ومن أعظمهم عمر بن الفارض. ومشاهدة الجمال الإلهي هي السعادة العليا التي ينتظرها المؤمنون في الآخرة، وإذا كان الله تعالى قد أبدع من الجمال ما يخلب الألباب، فإن مشاهدة جماله تعالى تنقل الإنسان إلى الفناء في الجمال المطلق الذي تسعد به الروح فتزداد جمالا على ما أسبغه الله عليها من جمال.

رفع المسهم

أخبـــار الرســـل والأنبيـــاء

تمهيـــد:

إن سير الرسل والأنبياء وأخبـارهم لها أهميـة بالغـة، بحكم أن الله تعالى قد اختارهم لرسالاته وتعليم عباده، وهذا يقتضي أن يكونوا قدوة لأقـوامهم في كل ما جاءوا به من عقائد وشرائع وأخلاق. لكن الناظر في سـيرهم المدونـة في الكتب السابقة يجد من الوقائع والأعمال ما لا يتفق مع طبيعة الهداية الإلهية التي جاءوا بها، وهذا يدل على عدم الضبط في تـدوين سيرهم وأنـه قد دخلت فيهـا عناصر غريبة عنها، وهذا لا ندخل فيه ونتركه للمتخصصـين في تاريـخ الكتب المنزلة السابقة على نزول القرآن.

أما في القرآن فإن الأمر يختلف، لأنه سجل أخبارهم وحيا من الله تعـالى وصلنا كما جاء وفي ضوء التاريخ الساطع. والقرآن يقول إنه يقص أخبار بعض الـرسل والأنبيـاء ولا يقص أخبار البعض الآخـر (غافـر/٧٨). وهـو أيضـا لا يتحـدث عن أخبـار بعضهم إلا قليـلا، وقـد يكتفي بـذكـر أسـمائهم وبعض صفاتهم الكريمة (مريم/٥٦ ـ ٥٧ : ادريس، ص/٤٨ : اليسع وذو الكفل).

أما التفصيل فهو في ذكر أخبار الرسل الذين كـانت في حياتهم ودعـوتهم أحداث كبرى وكان لهم شأن عـظيم في تاريـخ الدين والتـاريخ الإنسـاني، من عهـد آدم أبي البشر إلى نوح صـاحب الـطوفـان، ثم مـوسى الـذي أخـرج بني إسرائيل من مصر، وآل عمران الـذين كانت منهم مـريم والدة سيـدنا عيسى، إلى عهد محمد عليهم جميعا الصلاة والسلام.

رفع المسهم

وفي القرآن كل أخبار دعوتهم في جوهرها إلى تمام الهداية الإلهية في الرسالة المحمدية التي أكمل الله بها الدين للإنسانية كلها، لكننا قد نجد تفصيلا في أخبار بعض الأنبياء الذين تعرضت حياتهم للمعاناة بكل ما فيها من حكمة، وذلك مثل سيرة يعقوب ويوسف وأيوب عليهم السلام.

والقرآن فيما يقصه من أنباء الرسل يؤكد أنه «**أحسن القصص**» (يوسف/٣). والحق أن أسلوب القصص القرآني، بكل ما فيه من ذكر دعوة الأنبياء وما كان في حياتهم قد جاء في أعلى ذروة من الجمال والفصاحة والبيان والتصوير للأحداث، على نحو يأخذ بلب القارىء ويجتذبه ويؤثر فيه بكل وجوه التأثير. وذلك الأسلوب جدير بدراسة قائمة بذاتها.

والقرآن يؤكد أيضا أنه «**القَصص الحق**» (آل عمران/٦٢، المائدة/٣٧، الكهف/١٣) و﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلٌ فَصْلٌ ۝ وَمَا هُوَ بِٱلْهَزْلِ﴾ (الطارق/١٣ - ١٤)، وأن ما يحكيه هو «**قول الحق**» في أكبر مسألة انقسم فيها المنتسبون إلى دين إبراهيم عليه السلام أو في مسائل الاختلاف بين أهل الأديان الأخرى (البقرة/١١٣ و١٧٦ و٢١٣، النساء/١٥٧، النحل/١٢٤، مريم/٣٧، النمل/٧٦). والقرآن يؤكد أنه يقول الحق فيما يتعلق بالسيدة مريم الصدّيقة والميلاد الخارق لسيدنا عيسى عليه السلام. وفي هذا كله يريد القرآن أن يبين الحق ويدعو إليه وأن يرفع الخلاف على أساس الأصل المشترك بين جميع الأديان الثلاثة (آل عمران/٦٤، المائدة/١٥ و١٩).

وآيات القرآن تدلنا على وجوه الحكمة من ذكر أخبار الرسل والأنبياء وأنهم إنما جاءوا ليبينوا للإنسان معنى حياته في الأرض، وهذا كما قال الله تعالى لآدم من أول الأمر بعد أن هيأه لرسالته: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾﴾ (البقرة/٣٨، طه/١٢٣)، وجاءوا أيضا ليبينوا الحقائق الكبرى في الإيمان والمبادىء الكلية والشرائع بما فيها من

رفع المسهم

الأوامر والنواهي التي بحسبها سيسأل الإنسان عن حياته في هذه الدنيا (النساء/١٦٥)، ثم إن الأنبياء يؤكدون جميعا أن جوهر الدين والإيمان هو حقيقة واحدة، أعني الإيمان بالإله الواحد الحق ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ﴾ (الأنبياء/٢٥).

ومن جهة أخرى تشتمل أخبار الرسل في القرآن على ما جرى بينهم وبين أقوامهم وما عانوه من إعراضهم عنهم وتكذيبهم لهم، وما حل بالمكذبين من عقاب الله، وهذا من شأنه أن يدعو دائما إلى العظة والاعتبار، وفي تلك الأخبار تفصيل لجوهر العقائد، وهذا خصوصا بالنسبة للأديان المنزلة الأخيرة التي جاء القرآن مصدقا لها بالإجمال، وهو بذلك يشهد لها ويضمن لها البقاء حتى لو تباعد عنها أهلها، كما هو ملاحظ عند الكثيرين من أهل الكتاب.

ويحسن أن نذكر هنا أن القرآن يأمر كلا من اليهود والنصارى ـ ان هم لم يقبلوا دعوة الإسلام ـ أن يحكموا بما أنزل الله في التوراة والإنجيل (المائدة/٤٤ ـ ٥٠)، بل نحن نقرأ في القرآن: ﴿قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَسۡتُمۡ عَلَىٰ شَيۡءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُواْ ٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ ...﴾ (المائدة/٦٨).

ثم إن القرآن أراد من كثرة ذكره لأخبار الرسل وما تعرضوا له في أداء رسالاتهم أن يشد أزر الرسول محمد عليه الصلاة والسلام فيما كان يعانيه من معارضة قومه وتكذيبهم وإذايتهم له، لكي يثبت في دعوته ويصبر: ﴿وَكُلّٗا نَّقُصُّ عَلَيۡكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ﴾ (هود/١٢٠)، ولكي يعلم ويتأكد أن تكذيب قومه ليس أمرا عجيبا وأنه ليس تكذيبا له بقدر ما هو جحود بالحق الذي جاء به: «وإن يكذبوك فقد كذبت رسل من قبلك، وإلى الله ترجع الأمور»(فاطر/٤)،﴿قَدۡ نَعۡلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحۡزُنُكَ ٱلَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمۡ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجۡحَدُونَ ۝٣٣ وَلَقَدۡ كُذِّبَتۡ رُسُلٞ مِّن قَبۡلِكَ فَصَبَرُواْ عَلَىٰ مَا كُذِّبُواْ وَأُوذُواْ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمۡ نَصۡرُنَا وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ وَلَقَدۡ جَآءَكَ مِن

رفع المسهم

نَبَإِى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣٤﴾ ﴾ (الأنعام/٣٣ - ٣٤). ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُوا۟ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ . . .﴾ (الأحقاف/٣٥).

طريقة القرآن في القصص:

نحن لا نجد في أخبار الرسل والأنبياء سردا متصلا لسيرة أي منهم كاملة، ولا نجد تفاصيل مما يعرض في حياة الإنسان عادة، وهذا ما نجده في التوراة مثلا، وإنما نجد أولا وقبل كل شيء مضمون رسالاتهم وجوهرها وبعض المواقف والظروف والأحداث الكبيرة في حياتهم وفي أدائهم لرسالاتهم، وذلك لكي يعلمها قارىء القرآن وحيا حقيقيا ويستخلص منها الآراء والعظة والاعتبار، فالقرآن لا يقص لمجرد التاريخ، لأنه لا يريد أن يثقل على القارىء بتفاصيل تشوش حول الحقائق الأساسية، وكل كلامه بأسلوب موجز ومحكم. ويمكن الاجتهاد في ترتيب الوقائع والأحداث كما فعل بعض المفسرين، لكن ليس الأمر في الحقيقة دائما مسألة أحداث بل هو تقرير عقائد وذكر حقائق وآراء مسائل مستقلة في ذاتها عن الزمان والمكان.

وبحسب طريقة القرآن في التعليم المستمر نجد أخبار الرسل في أكثر من سورة في أثناء تعليم القرآن، فيما عدا سيرة سيدنا يوسف عليه السلام لأنها في سورة واحدة. ثم إن أخبار الأنبياء ليست مجرد تكرار، بل هي تعليم متدرج، وبعضها يكمل بعضا ويؤكده ويذكر به على مر السنين لأجل الطوائف المتجددة التي كانت تدخل في الإسلام تباعا، مما كان يدعو إلى التعليم من جديد بواسطة الوحي نفسه، لا بإحالة الداخلين الجدد على ما كان قيل من قبل، وربما أن تكون قد مضت عليه سنوات. على أننا قد نجد القصة مجملةً في جوهرها إما في السور الأولى أو الأخيرة، بحسب ما كانت تقتضيه الحكمة.

ونحن سنجتهد في أن نضع أمام القارىء حقائق أساسية من أخبار

رفع المسهم

بعض الرسل لكي يرى كل من ينظر فيها كيف أن القرآن أكمل العلم بدعوتهم، ويتبين أيضا ما قد انفرد به القرآن من حقائق لا وجود لها في الكتب المنزلة قبله، ومنها ما جاء تصحيحا لما فيها. وهذا واجب علمي على كل باحث في القرآن أن يقوم به. والحق أن كثيرا من الذين نظروا في القرآن من الغرباء عنه لم يتعمقوا في القراءة والدراسة والمقارنة الدقيقة، بل نظروا إلى أنواع من شبه ظاهري في بعض الجزئيات بين ما جاء في القرآن وبين ما في الكتب السابقة له، وصنيعهم هذا كما يصدق على أخبار الرسل يصدق أيضا على ما جاء في القرآن من كلام عن نظام الكون في جملته وفي أجزائه، فلم يلاحظوا أنه انفرد في كلامه عن الكون بطريقة متميزة من حيث نوع الظاهرات ونوع الكلام عنها[1]. والقرآن قد انفرد في أخبار الرسل بحقائق لا وجود لها أصلا في الكتب السابقة أو هي قد نسيت في أثناء تقلبات التاريخ أو تجاهلها أو جهلها الذين دونوا تلك الكتب بسبب الاختلافات بين أهل تلك الأديان، وهذا ما سنراه في سيرة من سنتكلم عنهم من الرسل والأنبياء.

إبراهيم المفكر الموحّد:

ولنبدأ بالرسول الذي يعتبر أبا للأنبياء ومؤسس التوحيد في الفترة الأخيرة من تاريخ الوحي الإلهي، وهو سيدنا إبراهيم الذي جاء على لسانه اللفظ المعبر عن روح الدين والتدين وحقيقة الإيمان وهو اسم «الإسلام»، وكذلك وصف من يؤمن بالله بأنه هو «المسلم»، وذلك على أساس قول الله في القرآن عن إبراهيم: ﴿ إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٣١﴾ ﴾ (البقرة/ ١٣١)، وكذلك على أساس دعاء إبراهيم لنفسه وولده إسماعيل

(١) في القرآن الكريم كلام وأحكام عن هذا العالم من نوع غير معروف قبل الإسلام،وكثير من ذلك لم ينكشف معناه إلا بعد تقدم العلم والمعرفة خصوصا في عصرنا، وهذا ما سيجده القارىء في الكلام عن إعجاز القرآن.

رفع المسهم

ولذريتها من بعد بقوله: ﴿... رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾﴾ (البقرة/ ١٢٨).

ونحن عندما ننظر في المواضع العديدة التي ورد فيها ذكر إبراهيم في القرآن نجد أمورا ومواقف كثيرة غير معروفة من قبل، ونحن سنكتفي بذكر بعضها في إيجاز، وأول ما يصادفنا هو إبراهيم «الفتى» الذي آتاه الله «الرُّشْدَ» في وقت مبكر (الأنبياء/ ٥١)، فأصبح «مفكرا» بين قوم يعبدون الأصنام في ظل ملك جبار مغرور بسلطانه وقدرته على التحكم في رعيته حتى بالحياة والموت. وينظر إبراهيم فيما عليه قومه من جمود على ما ورثوه عن آبائهم من عبادة الأصنام ومن قصور في التفكير ويريد أن يوجه عقولهم إلى معرفة الله الإله الواحد القهار.

فيشرع أولا بتوجيه إلهي في التفكر في **« ملكوت السموات والأرض »** لكي يصل إلى الإيمان اليقيني بوجود الخالق العظيم، فيرسل نظره إلى أعلى وأرقى ما يراه الإنسان من موقعه على الأرض، هو السماء وما فيها من كواكب وقمر وشمس، فيلاحظ أنها جميعا، رغم ما لها من روعة، تطلع وتبقى حينا ثم تتحرك إلى الأفول، فيستلفت نظره هذا التغير في أحوالها، وينقدح في فكره، كما فهم كلامه المفسرون، أن هذه الأجرام تتغير وأنها لا ثبات لها، فيتستنتج أنها لم توجد نفسها ولا بد أن يكون وراءها خالق دائم الوجود ولا يشبهها، وهذا أمر طبيعي يهدي إليه عقل الإنسان إذا فكر. والقرآن بعد أن يقص هذا الخبر يذكر النتيجة التي انتهى إليها إبراهيم، وهي قوله: ﴿**إني وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض حنيفا، وما أنا من المشركين**﴾.

ويجادله قومه فيكمل برهانه بدليل إضافي طريف يذكره القرآن، وهو نوع يسمى عند الفلاسفة «دليل المراهنة»، وهو مشهور في الفكر الإسلامي وله

رفع المسهم

أمثلة في القرآن (غافر/٢٨ ـ ٢٩)، وكان له تأثير في الفكر الأوروبي عند الفيلسوف الفرنسي المؤمن بسكال (ت ١٦٦٩م) ومن جاء بعده، وقد شرحناه في كلامنا عن أدلة وجود الله في القرآن، وملخصه أن المؤمن بوجود الله يكون أقرب إلى الأمن والنجاة في كل الأحوال من المنكر لوجوده تعالى بلا دليل، وقد فهم علماء الإسلام طريقة تفكير إبراهيم ووضعوا دليله على صورة جديدة تتلخص في الاستدلال بتغير الأشياء على حدوثها ووجود محدث لها وهو الله، وسموا ذلك «طريق إبراهيم». وتنتهي حكاية القرآن بقوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَـٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَـٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ (الأنعام/٧٤ ـ ٨٣).

إبراهيم الموحّد الثائر:

لقد كان من الطبيعي ـ بعد أن استدل إبراهيم على وجود الله ـ أن يبدأ في أداء واجب شعر بأن عليه أن يؤديه نحو قومه. ويبدو أن أول ما فعله كان كلاما له مع أبيه في عبادة الأصنام، وهو يخاطب أباه بكل رفق وبر وحرص على هدايته، فيقول له: ﴿يَـٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا ﴿٤٢﴾ يَـٰٓأَبَتِ إِنِّى قَدْ جَآءَنِى مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَٱتَّبِعْنِىٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا ..﴾، لكن الأب يصر على ماهو عليه، بل يهدد ولده ويأمره بالابتعاد عنه، فيفعل وهو حريص على هدايته، قائلا له: ﴿سَلَـٰمٌ عَلَيْكَ ۖ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّىٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ بِى حَفِيًّا ﴿٤٧﴾ وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدْعُوا۟ رَبِّى عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّى شَقِيًّا ﴿٤٨﴾ ...﴾ (مريم/٤١ ـ ٤٨).

يتباعد إبراهيم، لكن القرآن يذكر سورة أخرى من مجادلته لأبيه وقومه، وهو فيها يثير الشك في عقولهم لكي يفكروا ويصلوا إلى الإيمان، وفي ثنايا ذلك يدعو لأبيه (الشعراء/٦٩ ـ ٨٩).

رفع المسهم

وفي موضع آخر نجد الجدال يشتد بين إبراهيم وبين أبيه وقومه، وهنا يتهمهم بالضلال وينبههم من جديد إلى الإيمان بالإله الحق بعد أن كان قد عرفه بالدليل فيقول لهم: ﴿ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلَّذِى فَطَرَهُنَّ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴾، وفي الوقت نفسه يهددهم بأنه سيكيد لأصنامهم، ثم يخطط لتدميرها.

وهنا يظهر إبراهيم «الثائر»، وهو لا يزال فتى كما تدل آيات القرآن، فيتخلف عن مصاحبتهم في خروجهم ليوم عيد لهم ويوهمهم بأنه مريض، ويريد أن يصدم طريقتهم في التفكير ويبين لهم أنهم على خطأ، فيعمد إلى تلك الأصنام ويحطمها إلا أكبرها، لكي يدركوا أنها لا تستطيع دفاعا عن نفسها فضلا عن أن تنفعهم في شيء، وفي أثناء مساءلتهم التي ربما كانت أمام الملك، لا ينكر أنه فعل ما فعل، وكان قد « **جعلها جذاذا** » ويستهزىء بهم قائلا: ﴿بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُوا۟ يَنطِقُونَ﴾ فيرتبكون في تفكيرهم ويكادون يهتدون، لكنهم ينتكسون وينتهي الأمر بأن يقول لهم: ﴿أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾.

وينتهي الأمر بأن يقرروا أن يحرقوه، فيعدوا كل شيء، ويقذفون به في النار، فيبطل الله كيدهم بأمر خارق ينزع من النار طبيعتها: ﴿ قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴾، هذا نجده في (الأنبياء/٥١ ـ ٧٠، الصافات/٨٣ ـ ١١٣).

جاء في الحديث أن جبريل جاء إلى إبراهيم قبل أن يلقوه في النار وسأله: هل لك من حاجة ؟ فأجاب: أما إليك فلا ، وأما إلى الله فنعم، فقال جبريل: فاسأله، فأجاب: حسبي من سؤالي علمه بحالي. ولا يمكن أن تكون قوة الإيمان بالحق وأن تكون التضحية في سبيل الله والثقة في عنايته ونصره تعالى مثل ما كان ذلك عند إبراهيم.

رفع المسهم

التحدي للملك المغـــرور:

وفي هذه الفترة من مجادلة إبراهيم مع أبيه وقومه نجد منظر «المحاجة» بين إبراهيم وبين ذلك الملك المتجبر، والمحاجة عبارة عن الجدال الذي يحاول فية كل من المتجادلين أن يرد الآخر عن حجته، ولا بد أن يكون أمر إبراهيم ودعوته وثورته قد انتشر واشتهر وأدى ذلك إلى تدخل الملك في الموضوع.وإلى تلك المحاجة: فإبراهيم يدعو إلى الإيمان بالله الذي خلق الخلق فهو الذي منحهم الحياة وهو الذي يميتهم ويقدر على أن ينشئهم من جديد. ويعمد الملك إلى المغالطة ويقول إنه يستطيع أن يتحكم في رعيته بالحياة والموت، ويرد عليه إبراهيم بما يكشف مغالطته، والقرآن يذكر ذلك كله في آية واحدة لا يمكن أن يكون كلام أوجز ولا أحكم منها:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٥٨﴾﴾ (البقرة/٢٥٨).

لنلاحظ أن إبراهيم خرج عن معارضة الملك وما في كلامه من مغالطة إلى التحدي بشيء لا يقبل الجدال، وهو ما كان قد توصل إليه من التفكر في نظام الكون وأنه في يد الخالق العظيم وحده، وبذلك صدم طريقة تفكير الملك فلم يستطع جوابا.

ويدل سياق الآيات التالية على أن إبراهيم سأل الله تعالى أن يريه كيف يحيي الموتى، فاستجاب الله لسؤاله وأراه ذلك بالتجربة (البقرة/ ٢٦٠). ويروى أنه في أثناء تلك «المُحَاجّة» أراد الملك أن يحرج إبراهيم، فسأله: هل عاينت ربك يحيي ويميت؟ فلم يستطع إبراهيم بطبيعة الحال أن يقول نعم، ولذلك عارض الملك متحديا له بأن يغير نظام الطبيعة إذا كان يستطيع ذلك.

رفع المسهم

طموح إلى معرفة أعلى:

لكن إبراهيم كان مفكرا طموحا ينشد المزيد من المعرفة واليقين الذي يسكن إليه العقل ويطمئن القلب، فأراد أن يعرف أسرار القدرة: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى . . . . .﴾، فيريه الله تعالى ذلك بالتجربة (البقرة/ ٢٦٠) وقد أراد إبراهيم أن، يصل بعد العلم الاستدلالي على قدرة الله، إلى علم المشاهدة والرؤية، بحيث ينضم إلى دليل العقل «المعاينة». والمرتبة الأولى هي في عرف العلماء واهتدائهم بآيات القرآن «علم اليقين»، أما المرتبة الثانية فهي «عين اليقين» التي أرادها إبراهيم، وتأتي بعدها مرتبة أعلى هي «حق اليقين»، وفيها يذوق الإنسان بنفسه ما يعلمه بالعقل، وفي القرآن الإشارة إلى هذه المرتبة الأخيرة وإلى مرتبة «عين اليقين» وذلك في آية سورة البقرة/ ٢٥٩.

وفي الحديث الشريف أن الرسول عليه الصلاة والسلام قال في كلام القرآن عن ذلك: **«نحن أولى بالشك من إبراهيم»**، وهو إنما يقصد قصور معرفة الإنسان بأسرار القدرة ولا يقصد الشك فيها، وكان ذلك هو موقف إبراهيم.

ومن الوقائع في حياة إبراهيم أنه بعد محاولة إحراقه هاجر من وطنه وسكن في المكان الذي أنشئت فيه بعد ذلك المدينة التي سميت باسمه: مدينة الخليل، وذلك من قول القرآن عن إبراهيم: ﴿وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا﴾ (النساء/ ١٢٥)، وذهب إبراهيم إلى مصر، وأهدى إليه فرعون جاريته (هاجر)، وتزوجها بعد ذلك، ورزق، وهو كبير السن ابنه الأول إسماعيل (إبراهيم/ ٣٩). ثم جاءت ظروف تذكرها التوراة مع شيء من المفارقات ولا ضرورة للدخول فيها (تكوين/ ٢١)، وأدت إلى أن يأخذ إبراهيم ولده إسماعيل وهو طفل ويسكنه بعد ذلك في المكان الذي فيه البيت الحرام في مكة، وكان

رفع المسهم

واديا لا زرع فيه ولا ماء، ويتركهما هناك ويدعو لهما (إبراهيم/ ٣٥ ـ ٣٧)، ثم ظل يتردد عليهما إلى أن أذن الله له ببناء البيت الحرام.

ثم يرزقه الله بعد ذلك بسنين كثيرة ولده إسحق، بعد يأس من أن تلد زوجه سارة، وفي الأحوال كلها كانت الملائكة تبشره (هود/ ٧٠ ـ ٧٣، الصافات/ ١٠٠ ـ ١٠١، الذاريات/ ٢٨ ـ ٣٠) ـ لكن الأمر كله آيات تدل على قدرة الله الذي « **يفعل ما يشاء** ».

الاختبار والابتلاء:

كان إبراهيم قد عرف الله بالدليل، وفي القرآن أن الله قال له: ﴿أَسْلِمْ﴾، أي أسلم نفسك إلي بالتوحيد الحق والامتثال التام في كل ما آمرك به، فأجاب: ﴿**أسلمتُ لرب العالمين**﴾. والله تعالى يختبر من يصطفيهم من عباده ليقويهم على أداء رسالاته، ثم هو يلطف بهم، فابتلى إبراهيم بأن يذبح ولده، وتدل آيات القرآن على أن ذلك كان بعد أن نجاه الله من قومه وهاجر، وكان الولد قد أصبح فتى بدليل قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ﴾، أي السعي والمشاركة له في أعماله، فامتثل الأب وأطاع الولد، ﴿فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ﴾، أي لما استسلما لأمر الله، وأراد إبراهيم أن ينفذ الأمر، ناداه الله تعالى: ﴿أَن يَـٰٓإِبْرَٰهِيمُ ۝١٠٤ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ﴾، وفدى الله إسماعيل بكبش عظيم (الصافات/ ٩٩ ـ ١١٠).

ولا شك أن الذبيح هو إسماعيل، لأنه كان الابن الوحيد، وهذا ما يشير إليه القرآن بقوله: ﴿إِنَّ هَـٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَـٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ﴾، أما إسحق فإنه لم يولد إلا بعد إسماعيل بسنين كثيرة (أربعة عشر عاما بحسب التوراة لأن إسماعيل ولد وإبراهيم في السادسة والثمانين وولد له إسحاق وهو ابن مائة عام) (تكوين/ ١٧)، ثم إن إبراهيم نفسه يقول بحسب القرآن ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى

رفع المسهم

وَهَبَ لِي عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴾ (إبراهيم/٣٩) والآية تدل على الترتيب.

أما في التوراة فنجد كلاما غير دقيق، ونجد أن إبراهيم لما أخذ ولده إسماعيل بعيدا عن زوجه سارة كان ذلك بعد فطام إسحق، وأن إبراهيم أخذ هاجر ووضع على كتفها خبزا وقربة ماء والولد، فإذا كان صحيحا فإن إسماعيل كان في الخامسة عشرة على الأقل، ولا يمكن وضعه هو والخبز والماء على كتف هاجر، ثم يأتي بعد ذلك أنها بعد أن تاهت في البرية طرحت الولد تحت الشجرة. هذا لا يتفق أبدا مع طبيعة الأشياء ولا يصدق على اقصاء إسماعيل إلا وهو طفل تحمله أمه (تكوين/٢١).

وليس في التوراة ذكر لأخبار إسماعيل ولا لبناء البيت الحرام ولكنْ فيه أن رحلات إبراهيم تعددت جنوبا وفيه لقوافل الإسماعيليين. ونحن لم نرد بذكر هذا كله إلا لنبين أن القرآن يكمل ويصحح كل شيء حتى الوقائع وأن الذين دونوا التوراة لم يهتموا إلا بأخبار اسحق وذريته من بعده، مع أن التوراة (تكوين/١٧) تقول إن الله سيبارك إسماعيل وإنه سيجعل نسله أمة كبيرة وأنه يسكن أمام إخوته.

والآن لننظر حكمة الله في هجرة إبراهيم بابنه إلى وادي مكة حيث سيكون إسماعيل ﴿رَسُولًا نَّبِيًّا ﴾، ﴿يَأْمُرُ أَهْلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ﴾ (مريم/٥٤ ـ ٥٥)، وهناك تنشأ أمة جديدة في أرض جديدة إلى أن يظهر الإسلام على يد رسول من ذرية إبراهيم وعلى ملته: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ﴾ (النحل/١٢٣)، فيكملها ويفصل الهداية الإلهية وحقائق الإيمان بأدلتها ويقدمها للإنسانية: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ (المائدة/٣).

رفع المسهم

الاصطفاء:

فلا نعجب بعد هذا كله أن يختار الله إبراهيم إماما للناس: ﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا . . . ﴾ (البقرة/ ١٢٤ ـ ١٣١). ويدل سياق الآية على أن الله أمره ببناء البيت، فرفع قواعده وهو يدعو لنفسه وولده من بعده: ﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ (البقرة(١٢٧ ـ ١٢٩).

ثم أمر الله إبراهيم أن ينادي للحج: ﴿ وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾ لِّيَشْهَدُوا۟ مَنَٰفِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَٰتٍ . . . ﴾ (الحج/ ٢٧ ـ ٢٨). وصار البيت منذ ذلك العهد البعيد ولا يزال ﴿**مثابة للناس وامنا**﴾ ومكانا طاهرا ﴿لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿١٢٥﴾﴾ (البقرة/ ٢٥). وفي البيت وفيما حوله يلتقي المؤمنون بالله الواحد الحق من كل بقاع الأرض في أكبر تجمع بشري تتحد فيه العقول والقلوب بقول: «لبيك اللهم لبيك» وهذه هي الإجابة لله تعالى بالطاعة والدعاء.

هذه وغيرها وقائع في حياة إبراهيم، وهو الذي جاء ربه ﴿بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ (الصافات/ ٨٤)، أي بقلب بريء من الشرك مملوء بالثقة بالله والتوجه إليه وحده في كل الظروف والأحوال.

والقرآن يذكر أن إبراهيم كانت له «صحف»، ويذكر بعض ما اشتملت عليه من آيات «جامعة لأمر الديانة وخلاصة الكتب المنزلة» (بيضاوي في تفسير سورة الأعلى/ ١٤ ـ ١٩، النجم/ ٣٨ ـ ٤٢)، والقرآن يصف إبراهيم أنه كان

رفع المسهم

«أمة» (النحل/ ١٢٠)، يعني أنه كأنه «أمة» لكماله واستجماعه فضائل لا تكاد توجد إلا متفرقة في أشخاص كثيرين. . وهو رئيس الموحدين وقدوة المحققين (بيضاوي).

وعندما كان اليهود والنصارى يدّعون أن الهداية لا تكون إلا عندهم أجاب القرآن بقوله: ﴿قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾، (البقرة/ ١٣٥)، أي أن الله «اصطفاه وخصه بكرامة تشبه كرامة الخليل عند خليله».

ثم إن القرآن يعظم ملة إبراهيم إلى حد قوله ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ (البقرة/ ١٣٠)، وفي مقابل معارضة اليهود والنصارى للرسول عليه الصلاة والسلام يأمره الله أن يقول: ﴿قُلْ إِنَّنِى هَدَىٰنِى رَبِّىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ (الأنعام/ ١٦١).

وإذا كان أهل الكتاب جميعا اليوم يعظمون إبراهيم وكان الإسلام جاء مصدقاً لملة إبراهيم ولرسالة موسى وعيسى عليهما السلام فإن المنطق يقتضي منهم أن يقبلوا ماجاء به محمد عليه الصلاة والسلام كما أشرنا من قبل لتفسير الرازي لآية سورة النساء ١٢٥.

ولكن الذي حدث في تاريخ الدين المنزل أن كثيرا من الأمم كذبوا الرسل الذين أرسلوا إليهم، ويظهر أن دعوتهم كانت دعوة إجمالية للإيمان بالله من غير تفصيل للأدلة، وربما كان ذلك لقلة المران على التفكير النظري المستند إلى تأمل نظام هذا الكون، فأعرضوا عن دعوة الرسل ﴿وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍۭ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ﴾، أي ليقبضوا عليه ويتمكنوا من إصابته بما يريدون من أذى أو قتل، ﴿وَجَٰدَلُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُوا۟ بِهِ ٱلْحَقَّ﴾ (غافر/ ٥)، فأهلكهم الله

رفع المسهم

بذنوبهم، وقد قدمنا شرح ذلك في كلامنا عن السنة الإلهية في تغيير الدول والقضاء على الحضارات المنحرفة عن سنة الله.

لكن من المآسي في تاريخ الأديان المنزلة الثلاثة الأخيرة أن السابق منها يتنكر اللاحق، رغم أن اللاحق يصدق ما جاء قبله، وهنا يبقى للمتخصص في تاريخ الدين، وللإنسان المفكر الذي ينشد الحق واليقين في أمور الدين والإيمان أن يدرس في عدل وإنصاف ويقارن ويحكم بالحق ويختار ما يهديه إليه عقله.

أما القرآن فإننا نجد في آياته أن الناس كانوا ﴿**أمة واحدة**﴾، وربما كان ذلك لأنهم كانوا موحِّدين منذ عهد آدم أو موحِّدين على الفطرة، ثم اختلفوا، وهذا طبيعي بسبب العوامل الكثيرة التي تؤدي إلى الاختلاف في الآراء، مثل اتباع الهوى أو الاستبداد بالرأي أو تضليل الشيطان، والله تعالى أرسل الرسل مبشرين، ومنذرين، وأنزل معهم ﴿**الكتاب بالحق**﴾، أي التعليم الإلهي الصحيح، فاختلفت كل أمة فيما جاءها، كما اختلف أهل الأديان المنزلة أيضا، وكان من ذلك الاختلاف في وجهات النظر، لكن كان منه ما وقع «بَغْياً» من بعضهم على بعض، والبغي هنا بمعنى تجاوز الحق إلى الباطل أو إرادة بعضهم مالا يحق لهم، مثل أن يحملوا غيرهم على دينهم أو على مذهبهم ورأيهم، كما حدث بينهم في المذاهب في داخل الدين الواحد أو بين الأديان المختلفة فيما بينها، وهذا ما وقع في تاريخ كل دين وفي تاريخ العلاقة بين الأديان (البقرة/٢١٣، ٢٥٣، آل عمران/١٠٥، يونس/١٩، ٩٣، الجاثية/١٧، النحل/٦٣ ـ ٦٤)، ولكن هذه إرادة الله، فهو قد أرسل لهم الرسل وبين لهم الحق ولكنهم لأسباب كثيرة اختلفوا أو جحدوا، فأمهلهم وسيحاسبهم، كل منهم بما صنعوا ويفصل بينهم فيما اختلفوا فيه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـُٔونَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلْمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿١٧﴾﴾ (الحج/١٧).

رفع المسهم

أما القرآن فإنه قد بين الحق للناس وأوجب عليهم أن يستعملوا عقولهم وأن يتثبتوا قبل أن يتبعوا الآراء: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾ (الإسراء/٣٦). وهو لما كان آخر الكتب المنزلة فإنه ذكر أنواع الاختلافات في الأديان وبين الأديان. أما الحكمة من نزوله فهي في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ (النحل/٦٣ - ٦٤).

وبعد هذا كله تبقى الحقيقة الإيمانية الكبرى، وهي جوهر ملة إبراهيم: الإيمان بالله وحده والإسلام له وحده، وكذلك تبقى الحقيقة الإنسانية الكبرى، وهي أن البشر جميعا أسرة واحدة، وإذا كانت إرادة الله تعالى قد أذنت بأن يختلفوا مهما كانت أسباب الاختلاف، فإنهم يجب أن يشعروا بما بينهم من أخوة إنسانية وبما يجب عليهم على هذا الأساس من العدل والإحسان والمحبة، أما المعيار للتفاضل فيما بينهم فهو ما جاء به القرآن: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾﴾ (الحجرات/١٣).

رفع المسهم

عيسى رسول الله وكلمتُه ألقاها إلى مريم

تتفق الأديان المنزلة الثلاثة بوجه عام في الإيمان بالإله الواحد الحق: ﴿خالق السموات والأرض﴾، ﴿خالق كل شيء﴾، لكن الخلاف الأكبر بينهما كان هو حول سيدنا عيسى عليه السلام وميلاده الخارق للعادة بلا أب بالمعنى الدنيوي وكذلك حول والدته السيدة مريم.

فاليهود أنكروا رسالته وقالوا عن والدته ما قالوا من «بهتان» (النساء/١٥٦)، وعلماء النصارى، في أثناء تفسيرهم للظاهرة الخارقة فصلوا العقيدة المسيحية بعد أبحاث ومجادلات طويلة وعقد مجالس لتقرير أصول العقيدة. ونحن لا ندخل في ذلك وإنما نريد أن نبين ما في القرآن حول المسيح عليه السلام وجوهر رسالته وقداسة والدته.

على أننا لا نجد في التوراة ولا في العهد القديم كله شيئا يذكر عن السيدة مريم، مع أنها من واقع التاريخ والحياة الدينية عند اليهود.

ومن جهة أخرى فإن الأناجيل لم تفصّل كيفية تلك الظاهرة الكبيرة، لكن فيها (ل: ١/٢٦ ـ ٣٥، ٢/٢١) أن جبريل، وهو روح القدس، أعلن لها أنها الأم العتيدة للمسيح المنتظر ابن الله وأنها المباركة من النساء والمنعم عليها بنعمة عظمى وأنها مثل أعلى للنساء والأمهات قاطبة. (ل: ١/٢٨، ٢/٢٧ و٣٣ و٤١ و٤٨، ٣/٢٣ ـ نقلا عن قاموس الكتاب المقدس، إشراف الدكتور بطرس عبدالملك).

أما عن المسيح عليه السلام فإننا نجد في العهد القديم نبوءات كثيرة وذكر أنها تحققت في العهد الجديد (القاموس السابق ص ٨٦١ فما بعدها).

رفع المسهم

وكلام القرآن عن سيدنا عيسى وأمه موجود في أكثر من سورة، بإيجاز أحيانا وبتفصيل أحيانا أخرى وبحسب طريقة القرآن في التعليم المتدرج في ذكر أخبار الرسل والأنبياء. ومن ذلك كثير عن كيفية حمله وميلاده ورسالته إلى بني إسرائيل «**مؤيدا بروح القدس**» وعن عقيدته التي دعاهم إليها، و«**البينات**»، أي الخوارق، التي جاء بها إليهم (آل عمران/٤٨ - ٥١، المائدة/١١٠ - ١١٢)، وفي القرآن إشارة إلى روح التقوى والرحمة والرأفة التي جعلها الله في قلوب الصادقين من المؤمنين به، إلى جانب رهبانية ابتدعوها ابتغاء رضوان الله (الحديد/٢٧)، وكذلك في القرآن إشارة إلى أن أقرب الناس مودة للمسلمين هم النصارى، ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٨٢﴾﴾ (المائدة/٨٢).

والناظر في آيات القرآن في أمر المسيح عليه السلام ووالدته وميلاده يجد أمورا كثيرة، منها ما يتعلق بحكمة الله وقدرته في أن يفعل ما يشاء، ومنها ما يتعلق بالعقائد والآراء والوقائع عند النصارى، ونحن لا نريد التركيز على الفوارق الاعتقادية بين المسلمين والنصارى، لأننا نريد أن نعرض ما في القرآن بحسب الآيات وما يمكن أن نفهمه منها.

وأول ما نحب الإشارة إليه هو أن الله تعالى جعل من سيدنا عيسى وأمه (**آية للعالمين**) (الأنبياء/٩١، المؤمنون/٥٠)، وهي آية متنوعة المظاهر: ميلاده من عذراء طاهرة «لم يمسسها بشر» وكلامه لها في ساعة ولادته ليهدىء من رَوْعها، ثم كلامه بعد ذلك وهو في المهد ليبرئها من الاتهام لها، هذا إلى جانب المعجزات التي وقعت على يديه وهو يبلغ رسالته لبني إسرائيل كما تقدم القول.

وهنا، بالنسبة للأمر الخارق، لا يصح أن نفسره بأي نظريات أو آراء فلسفية أو أنواع من التخيل، إلا بحسب ما يبينه الله الذي قضى الأمر كله.

رفع المسهم

ولا شك أن ميلاد إنسان من عذراء بإرادة الخالق المبدع على النحو الذي تتسع له قدرته المطلقة ليس بالأمر المستغرب، إلا بالنسبة لما ألفناه في دنيانا هذه.

أما الحقيقة فإن ذلك الميلاد إنما جاء إكمالا للوجوه الممكنة للخلق الإبداعي على مستوى الإنسان، وهذا يتضح لنا إذا نحن تفطنا إلى أن الله خلق آدم على نحو فريد، فلا أب ولا أم، ثم إنه تعالى خلق زوجه منه بلا أم، ونحن لا نعرف من ذلك إلا المعنى الظاهر للألفاظ من قوله تعالى مثلا: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا ﴾ (الأعراف/١٨٩)، والزوج هو النظير المكمل لتلك النفس في الوجود وفي النوع وفي الوظيفة، فبقي من الأمور الممكنة أن يخلق الله مولودا من أم عذراء على الوجه الذي أراده سبحانه وبينه القرآن.

والقصة بأقسامها موجودة في أكثر من موضع من القرآن وفي أسلوب جميل وفي جملة آيات متكاملة، كأنها وحدة تشرح الظاهرة: نجد البداية في أمر السيدة مريم، ونجد في الآيات نفسها دعوة سيدنا عيسى، وذلك في سورة (آل عمران/٣٣ ـ ٦٢)، وهم الذين اصطفاهم الله بعد آل إبراهيم: تنذر امرأة عمران ما في بطنها ليكون مخصصا لعبادة الله لا يشتغل بغيرها، فتولد أنثى، ويتقبلها الله ﴿**بقَبول حسن**﴾، ويكفلها زكريا عليه السلام، فيدخلها في محراب المعبد، ثم صار يتردد عليها، فكان ﴿**كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقا، قال: يا مريم أنى لك هذا، قالت: هو من عند الله، إن الله يرزق من يشاء بغير حساب**﴾.

وفي أثناء خلوة السيدة للعبادة، كانت الملائكة تتردد عليها وتكلمها، فتقول لها مثلا: ﴿ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾، وتدعوها أيضا إلى مواصلة القنوت والسجود والركوع مع الراكعين لله.

رفع المسهم

وبعد هذا الإعداد للسيدة تقول لها الملائكة: ﴿ يَٰمَرۡيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٖ مِّنۡهُ ٱسۡمُهُ ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ وَجِيهٗا فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ وَمِنَ ٱلۡمُقَرَّبِينَ ﴾، وتذكر لها الملائكة من معجزاته أنه يتكلم وهو في المهد وأن الله يعلمه الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل وسيبعثه رسولاً إلى بني إسرائيل مؤيداً بالمعجزات. فتتساءل: ﴿ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٞ وَلَمۡ يَمۡسَسۡنِي بَشَرٞ قَالَ كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُ إِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٧﴾ ﴾.

وهكذا بعد أن صفت الروح الطاهرة فوق ما فيها من صفاء، بالإضافة إلى جملة الخوارق التي جربتها بنفسها، تهيأت السيدة العذراء واستعدت نفسيا لما اقتضته إرادة الله وحكمته. وهذا ما نجد تفصيله في سورة مريم (١٦ - ٣٧).

تعتزل السيدة أهلها وتحتجب عنهم، ولا شك أن هذا بإلهام من الله فيأتي إليها جبريل ويتمثل لها ﴿ بَشَرٗا سَوِيّٗا ﴾، أي جميل التكوين، حتى تراه ويتهيأ الظرف للحمل بحسب قوانين الطبيعة البشرية (بيضاوي مثلا) ولا يكون حملها مشككا لها في الأمر كله، فتخاف وتخاطبه: ﴿ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحۡمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيّٗا ﴾، فيهدىء من روعها ويقول لها: ﴿ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمٗا زَكِيّٗا ﴾، وهذا مصداق ما كانت قد سمعته من قبل من الملائكة الذين كانت تتحدث إليهم وبشروها به وبما سيكون من شأنه في الدين والدنيا، فتتساءل: كيف يكون ذلك ولم يمسسها بشر فيجيب أن هذا هو أمر الله وقضاؤه وأن الله سيجعل ولدها « آية للناس »، ورحمة منه تعالى لهم.

والقرآن يشرح كيفية ذلك ولا يتركه لأي تفسير آخر، فيقول أنه كان نفخة خارقة للعادة بواسطة جبريل (الأنبياء/٩١، التحريم/١٢)، وكانت تلك النفخة بحسب تفسير أهل العلم بحقائق الدين، في درع السيدة العذراء أي في فتحة ما من ثوبها. ومن الواضح بحسب السنّة العامة للطبيعة التي

رفع المسهم

خلقها الله وعلى المستوى الإنساني من أول الأمر إلى آخره أن ذلك النفخ كان نفخ الروح وما يقوم مقام الحمل العادي، لكي يظهر الأمر على مستوى قريب من الواقع الذي يمكن أن يتصوره العقل بحسب الشواهد السابقة، ولا يتصوره أو يفسره بحسب الخيال الشخصي أو ما خطر لبعض الفلاسفة السابقين من اليونان والرومان. (الفلسفة الرواقية مثلا).

على أننا نجد النظير لهذا النفخ الخارق للعادة فيما ذكره القرآن من أن جبريل نفخ في ذلك الطين الذي خلقه الله نفخة صار منها الإنسان الذي هو نحن مثلا (الحجر/٢٩)، بل إن نظير ذلك من وجه ما موجود في معجزات سيدنا عيسى نفسه، لأنه كان بحسب القرآن «**يخلق**»، أي يصنع ويشكل، من الطين تمثالا «**كهيئة الطير**» فينفخ فيه «**فيكون طيرا بإذن الله**»، وهذا كأنه الشاهد على ما كان لعيسى عليه السلام من روحانية ترجع إلى طبيعته الخاصة التي تظهر آثارها بإذن الله، هذا إلى جانب الخوارق الأخرى التي يؤكد القرآن أنها دائما «**بإذن الله**».

أما كيفية ولادة سيدنا عيسى فإنه بعد أن تم الحمل على هذا الوجه غير العادي تلاحقت الأحداث بسرعة. وهذا يؤخذ من طريقة التعبير القرآني: تنأى السيدة بنفسها بعيدا عن الناس. وتلجئها ساعة الميلاد إلى «**جذع نخلة**» في ﴿**رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ**﴾ (المؤمنون/٥٠)، وهنا في تلك اللحظة الحاسمة تتذكر السيدة الطاهرة رأي المجتمع وأقوال الناس، وهي على كل حال بشر، فتتمنى أن تكون قد ماتت قبل ذلك وصارت ﴿**نسيا منسيا**﴾ وهنا تحدث الخوارق الجديدة.

فتسمع نداء ﴿**مِنْ تَحْتِهَا**﴾، وهو كلام الوليد الذي وعدتها به الملائكة من قبل، فيقول لها ألا تحزن وأن تنظر لتجد تحتها جدول ماء وأن تهز جذع النخلة ليسقط منها الرطب الجنى، فتأكل وتشرب ولا تخاف، فإذا رأت أحدا

رفع المسهم

من البشر فلا تحدثهم، ثم تحمل السيدة وليدها وتأتي إلى قومها فتسمع الاتهام فتشير إلى الوليد ليرد عليهم، فلا يصدقون ذلك، فينطق الوليد: ﴿إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَٰنِي بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ وَبَرًّا بِوَٰلِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا . . .﴾.

ويختم القرآن قصة مولد سيدنا عيسى بقوله: ﴿ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ ٱلْحَقِّ ٱلَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٣٤﴾ مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ سُبْحَٰنَهُۥٓ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٣٥﴾ وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٣٦﴾ فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾.

ولنلاحظ أن الآيات تشير من جهة إلى الخلاف بين اليهود والنصارى حول كيفية حمله وولادته عليه السلام، وإلى الخلاف بين النصارى أنفسهم في تفسير الظاهرة الخارقة.

أما دعوته عليه السلام فقد اشتمل عليها خطابه لليهود وهو قوله: ﴿يَٰبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ (المائدة/٧٢، آل عمران/٤٩ - ٥١، مريم/٣٦، سورة الصف/٦).

وفي القرآن الكريم أن عيسى عليه السلام خاطب اليهود وقال لهم: «قد جئتكم بالحكمة ولأبين لكم بعض الذي تختلفون فيه، فاتقوا الله وأطيعون. إن الله ربي وربكم فاعبدوه، هذا صراط مستقيم﴾ (الزخرف/٦٣ - ٦٤، ٦٤)، لكن بني إسرائيل تنكروا لدعوته، فأراد أن يعرف من آمن بها ومن سيقف إلى جانبه، والقرآن يبين لنا ذلك بقوله: ﴿فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ ٱلْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ (آل عمران/٥٢)، والمقصود أنهم مسلمون لله تعالى.

رفع المسهم

والقرآن في كلامه عن السيدة مريم ينفي عنها ما اتهمها به اليهود (النساء/١٥٦)، كما أن آيات القرآن صريحة في أن سيدنا عيسى «رسول الله»، جاء مصدقا لما بين يديه من التوراة، وصريحة في نفي كل ما يقال عن ألوهيته أو بنوته لله (المائدة/٧٢ ـ ٧٣، مريم/٣٥)، بل إن في القرآن أن المسيح عليه السلام سينفي أمام الله ما قيل عن ألوهيته هو وأمه، وذلك بقوله: ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۚ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ۖ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾﴾ المائدة/١١٧ ـ ١١٨).

أما ما جرى على لسان سيدنا عيسى من عبارات فيها لفظ الأبوة وعبارات تشعر بالوحدة بينه وبين الأب، فقد فسرها علماء الإسلام بأنها خصوصية أذن الله بها إليه، وهي تشير إلى الوحدة في اتباع إرادة الله والامتثال لأمره.

وإلى جانب المعجزات التي جاء بها عيسى إلى بني إسرائيل وأشار إليها القرآن: من نفخة في تمثال يصنعه لطائر وينفخ فيه فيكون طيرا بإذن الله، وإبراء الأكمه والأبرص، وإحياء الموتى، وغير ذلك، (آل عمران/٤٩)، يذكر القرآن أن الحواريين طلبوا منه أن ينزل الله لهم مائدة من السماء ليأكلوا منها، ويتأكدوا أنه صادق في رسالته، وأنه عليه السلام سأل ربه ذلك فأجابه، (المائدة/١١١ ـ ١١٥). ويمكن السؤال عن العلاقة بين هذه المائدة التي أنزلها الله من السماء وأكل منها المؤمنون بسيدنا عيسى وبين ما عند المسيحيين من مسألة «العشاء الرباني».

وفي القرآن أن اليهود لم يستطيعوا أن يمسوا المسيح عليه السلام بسوء وأن الله رفعه إليه، والآية القرآنية تذكر ذلك وتشير إلى الشكوك حول هذه المسألة

رفع المسهم

بين أتباع سيدنا عيسى أنفسهم، والقرآن بعد أن يبرىء السيدة مما اتهمها به اليهود ومن ادعائهم أنهم قتلوا سيدنا عيسى يقول: ﴿ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا ﴿١٥٧﴾ بَل رَّفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٥٨﴾ ﴾ (النساء/١٥٦ ـ ١٥٨)، والآية القرآنية تحتاج إلى تفسير بحسب جميع الظروف التي أحاطت بدعوة سيدنا عيسى، والآراء بين الفرق المسيحية الأولى في حقيقة الصلب، ومن وما كان هو المصلوب.

ومهما كان من خلاف بين المسيحيين فيما بينهم، وبينهم وبين المسلمين، فإن الجميع، رغم ظواهر الخلاف في التصورات أو الآراء أو العبارات، مجمعون على وحدانية الله خالق السموات والأرض حتى الذين يقولون بالتثليث.

وفي القرآن أن ظهور المسيح عليه السلام وكذلك نزوله المنتظر سيكون من علامات قيام الساعة، والقرآن يؤكد أنه سيجعل الذين اتبعوه فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة (آل عمران/٥٥)، وأنه ما من أحد من أهل الكتاب إلا سيؤمن به قبل أن يموت (النساء/١٥٩).

وقد حفلت كتب علماء الإسلام بأخبار سيدنا عيسى عليه السلام وبما صدر عنه من أقوال، وقد عني بعض علماء النصارى بجمعها من كتب المسلمين، كما فعل الراهب بلاثيوس Asin Palacios.

ونحب أن نلاحظ في نهاية هذا الكلام الموجز عن سيدنا عيسى وأمه عليهما السلام، أن الأمر كله محوط بالخوارق، وأن «**الروح القدس**» له دور في أشياء كثيرة، وفي هذا كله آية كبرى متشعبة. وإذا كان ما قيل حول ذلك كله محوطا بآراء قد لا يكون لها سند كاف من نصوص الإنجيل، وهي لا تفصل كل ما كان حول المسيح، فإن القرآن ألقى الأضواء على كل شيء،

رفع المسيحيين

وأشار إلى ما كان هناك من اختلافات في تفسير تلك الأمور الخارقة، ووجه التفكير إلى استبعاد التصورات المتناقضة، وأشار خصوصا إلى ما خص الله به السيد المسيح من مزايا وفضائل، (آل عمران/ ٤٥ ـ ٤٦). وفي القرآن الشهادة الإلٰهية الدائمة لرسالته، ولقداسة أمه والحمل الطاهر، وذلك قبل أن تقرره وتعتمده الكنيسة المسيحية في القرن الماضي.

وقد اشتمل القرآن إلى جانب أخبار الرسل والأنبياء على أخبار بعض حكماء المؤمنين (لقمان)، وأخبار بعض الشخصيات التاريخية الغامضة (قصة ذي القرنين)، أو المؤمنين الذين نَجَوْ بدينهم من الاضطهاد (أهل الكهف)، وغير ذلك من أخبار لأمم يبقى البحث عن آثارهم مثل **«أصحاب الأيكة وقوم تبع»**.

لقد اجتهدنا في ذكر بعض أخبار الرسل والأنبياء في كلامنا عن سيدنا إبراهيم وسيدنا عيسى عليهما السلام، ولمن شاء أن يقارن بين ما في القرآن وبين ما في التوراة والأناجيل، فإننا قد فتحنا له الطريق وفيما ذكرنا عن سيدنا إبراهيم وسيدنا عيسى نوع من الدراسة لأخبارهما في القرآن، ونجد مثل ذلك في سير الرسل الآخرين، وحسبنا أننا قدمنا بعض ما جاء في القرآن وتميز به فيما ذكره من أنباء الرسل، ونحن نتمنى أن يواصل غيرنا هذا العمل، والله الموفق.

رفع المسهم

رفع
المساهم
عبد الله الرويلي

المحتويـات

مقدمتـان [٧ ـ ١٤]

● **وفاء وعرفان**، للأستاذ الدكتور علي الشملان،
المدير العام لمؤسسة الكويت للتقدم العلمي ٧
● **تصدير** بقلم الأستاذ الدكتور عبدالله الغنيم، رئيس مشروع قاموس
القرآن الكريم يتناول سيرة المؤلف وتعريفا
بالكتاب مع تنبيهات لابد منها ٩

موضوعات الكتاب

تمهيد: القرآن روح من أمر الله ١٥

أولا ـ بين يدي القرآن: مقدمات لابد منها [١٩ ـ ٦٤]

● **الدين: الإسلام** ٢١
الإسلام، الإخلاص ٢٤
الإسلام، الإيمان، الإحسان ٢٧
● **مكان القرآن بين الكتب المنزلة** ٢٩
ـ القرآن مرحلة جديدة ومنهج جديد
في الإيمان والوصول إليه ٣٤
ـ القرآن بديل للمعجزة ٣٥

رفع
المسهم
غفرالله له ولوالديه

- رسول أمي، علمه الله ليعلم الأميين ٣٨
- بعض مميزات القرآن الكريم:
١ - القرآن خطاب إلهي عام ٣٩
٢ - القرآن تعليم متدرج ومستمر ٤٠
٣ - تحول طريقة التفكير واتجاه المعرفة ٤٢
٤ - القرآن كتاب شامل ٤٤
● **طريقة القرآن في التعريف ببعض المسائل** ٤٨
- القدرة الإلهية وأفعال المخلوقات ٤٩
- الأمر الالهي - الإذن الالهي ٥٤
● **العلم والمعرفة** ٥٧
- مواقف القبول، الشك لأجل اليقين ٦٠
- مصادر المعرفة ٦٠
- المنهج العام لتحصيل المعرفة ٦٢

ثانيًا: الموضوعات الكبرى في القرآن الكريم [٦٥ - ١٧٧]

● **العقائد** ٦٧
- أصول العقيدة ٦٧
- الله تعالى ٦٩
- أدلة القرآن على وجود الله ٧٠
- الحقيقة الإلهية وتعاليها فوق إدراك المخلوقات ٧٦
- إيمان الفطرة ٧٨
- صفات الله ٨٠
- المخلوقات كلها تعبد الله ٨٢
* الإيمان بالغيب ٨٥

رفع المسهم

- عالم الجن ٨٦
- عالم الملائكة ٨٧
- اليوم الآخر ٨٩
- البعث للحساب والجزاء ٩١
* الإيمان بالقضاء والقدر ٩٥
● **السموات والأرض وما بينهما** ١٠٢
- جوانب كلية لهذا الكون في القرآن ١٠٦
- الأرض ١١١
- رسالة الإنسان ومعنى حياته في الأرض ١١٩
● **السنة الإلهية في تغيُّر الدول والحضارات** ١٢٨
● **الحق والخير والجمال في القرآن الكريم** ١٣٥
- تمهيد ١٣٥
* **الحق** ١٣٥
- الحق النظري ١٣٧
- الحق العملي ١٣٩
- حقوق متبادلة ١٣٩
- الحق قوة غالبة ١٤١
* الخـــير ١٤٢
- معرفة الخير والشر ١٤٥
* الجمـــال ١٤٦
● **أخبار الرسل والأنبياء** ١٥٣
- تمهيد ١٥٣
- طريقة القرآن في القصص ١٥٦
* سيدنا إبراهيم عليه السلام ١٥٧

رفع المسهم

- إبراهيم المفكر الموحد ١٥٧
- إبراهيم الموحد الثائر ١٥٩
- التحدي للملك المغرور ١٦١
- طموح إلى معرفة أعلى ١٦٢
- الاختبار والابتلاء ١٦٣
- الاصطفاء ١٦٥
* سيدنا عيسى عليه السلام:
رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم، وروح منه ١٦٩

2008-09-12